الينابيع

عنترة بن شداد

فاروق خورشيد

السَّيف و الكلمات

الشركة المصرية العالمية للنشر
لونجمان

مكتبة لبنان ناشرون

This book is donated to the
Bibliotheca Alexandrina
by

American Women of
Alexandria
October 2000

عنترة بن شداد

السَّيف و الكلمات

إشراف : الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ، ١٩٩٧

١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

يطلب من : **شركة أبو الهول للنشر**

٣ شارع شواربي بالقاهرة ت : ٣٩٢٥٦٠٨ ، ٣٩٢٤٦١٦

١١٧ طريق الحرية (فؤاد سابقا) - الشلالات ، الإسكندرية ت : ٤٩٢١٨٣٩

جميع الحقوق محفوظة : لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه أو تسجيله بأية وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الأولى ١٩٩٧

رقم الإيداع ١١٣٠٩ / ١٩٩٦

الترقيم الدولي ٤ - ٠٢٣١ - ١٦ - ٩٧٧ ISBN

رسوم : نسيم نصيف

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة

الينابيع

عنترة بن شداد

السَّيف و الكلمات

فاروق خورشيد

الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

عَنْتَرَةُ وَالْمُؤامَرَةُ

كانَ صَوْتُ « عمرو بن مالِك » يَتَهَدَّجُ غَضَبًا ، وَنَبَراتُهُ تَرْتَفِعُ مَليئَةً بِالحَنَقِ وَالثَّوْرَةِ وَهُوَ يَقولُ : « لا بُدَّ أَنْ تَضَعَ حَدًّا لِهَذا الأمْرِ ، فَقَدْ زادَ عَنْ حَدِّهِ ، وَفاقَ كُلَّ احْتِمال .»

كانَ « مالكُ بْنُ قُراد » يَسْمَعُ حَديثَ ابْنِهِ وَهُوَ مُطْرِقٌ بِرأسِهِ ، يَنْكُتُ الأَرْضَ أَمامَهُ بِعودٍ في يَدِهِ ، وَيَرْسُمُ بِالعودِ خُطوطًا عَشْوائِيَّةً في الرِّمالِ ، وَكَأَنَّما يُريدُ أَنْ يُحَمِّلَ هَذِهِ الخُطوطَ كُلَّ حيرَتِهِ وَقَلَقِهِ .

وَعادَ « عمرو » يَقولُ في حِدَّةٍ : « لا بُدَّ أَنْ تَسْمَعَ كُلَّ ما يَتَناقَلُهُ شُبّانُ القَبيلَةِ مِنْ أَشْعارٍ ، وَلا بُدَّ أَنَّكَ تَعْرِفُ ما تَحْكيهِ نِساءُ القَبيلَةِ مِنْ حِكاياتٍ ، وَلا بُدَّ أَنَّكَ تُحِسُّ ما يَهْمِسُ بِهِ عَبيدُ القَبيلَةِ مِنْ نِكاتٍ . لا بُدَّ أَنَّكَ تَعْرِفُ أَنَّنا غَدَوْنا مُضْغَةً في الأَفْواهِ ، وَحِكاياتٍ لِلسُّمّارِ ، يَتَحَلَّقونَ

حَوْلَ الجَمَراتِ المُتَوهِّجَةِ في لَيالي الشِّتاءِ وَيَتَسَلَّوْنَ بِعِرْضِنا وَكَرامَتِنا .. لا بُدَّ أَنَّك ... »

كَسَرَ « مالِك » العودَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَحْدَثَ تَحَطُّمُهُ صَوْتًا أَوْقَفَ الكَلِماتِ في فَمِ « عمرو » ، ثُمَّ رَمى العودَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَرَفَعَ رَأْسَهُ ، وَهُوَ يَقولُ في صَوْتٍ غاضِبٍ : « كَفى ، يا « عمرو » ! أَثَرْتَ ، وَ حَقِّ الكَعْبَةِ ، غَضَبي .»

صاحَ « عمرو » في انْدِفاعِ الشَّبابِ وَعَصَبِيَّتِهِ قائِلاً : « الشِّعْرُ ، يا أَبي ، الشِّعْرُ فَضَحَنا في كُلِّ حِلَّةٍ وَكُلِّ نَجْعٍ ، عِنْدَ كُلِّ سَمَرٍ ، وَعِنْدَ كُلِّ نَدْوَةٍ .. الشِّعْرُ ، يا أَبي ، يَتَناقَلُهُ الرِّجالُ ، يُرَدِّدونَهُ مِنْ مكانٍ إلى مَكانٍ ، وَمِنْ قَبيلَةٍ إلى قَبيلَةٍ ، وَمِنْ مُنْتَدًى إلى مُنْتَدًى . الشِّعْرُ ... الشِّعْرُ ، يا أَبي ، الشِّعْرُ ... »

صاحَ « مالك » في عُنْفٍ : «كَفى ، يا بُنَيَّ .. كِدْتَ ، وَ حَقِّ الكَعْبَةِ ، تَمَسُّ أَعْراضَنا .»

قالَ « عمرو » وَكَلِماتُهُ تَقْطُرُ حِدَّةً وَغَضَبًا وَتَعاسَةً :

« مَسَّ الشِّعْرُ أوْ كادَ أعْراضَنا ، فَهَلْ تَعْجَزُ عَنْ إسْكاتِ كَلِماتِ هَذا العَبْدِ الأسْوَدِ المَلْعونِ ؟»

صاحَ « مالك » : « هُوَ عَبْدٌ أسْوَدُ وَمَلْعونٌ – وَلَكِنَّهُ بَطَلُ القَبيلَةِ كُلِّها وَقُرَّةُ عُيونِها ، وَلَنْ نَسْتَطيعَ أنْ نُسْكِتَ كَلِماتِهِ ، وَهُمْ يَرَوْنَ فيهِ مُنْقِذَ أعْراضِهِمْ وَمُحَرِّرَ نِسائِهِمْ ، وَصاحِبَ اليَدِ الطّولى في اسْتِرْجاعِ أمْوالِهِمْ وَثَرَواتِهِمْ .»

سَكَتَ « عمرو » ، وَظَلَّ يُحَدِّقُ في أبيهِ في صَمْتٍ ، ثُمَّ قالَ في صَوْتٍ خافِتٍ : « أنْتَ إذاً تَرى ما أرى ، وَتَعْرِفُ ما أعْرِفُ ، وَتَتَمَرَّدُ على ما أتَمَرَّدُ عَلَيْهِ ؛ حينَ تَنْحازُ القَبيلَةُ إلى هَذا العَبْدِ وَتُفَضِّلُهُ على سُمْعَتِنا وَكَرامَتِنا !»

قالَ « مالِك » في ضيقٍ : « يا «« عمرو »» .. إنْ كُنْتَ أنْتَ أخا «« عبلة »» فَأنا أبوها ، وإنْ مَسَّكَ ضَرَرٌ مِنَ الشِّعْرِ الَّذي يَتَناقَلُهُ النّاسُ عَنْ «« عَنْتَرَة »» فيها ، فَالضَّرَرُ يُغْرِقُني كُلّي في بَحْرٍ مِنَ العارِ وَالمَرارَةِ وَالضّيقِ . وَلَكِنْ ماذا أفْعَلُ وَالمَلِكُ «« زُهَيْر »» يَحْميهِ ، وَأبوهُ «« شَدّاد »» أخي لا يَقْوى

عَلى رَدِّهِ .»

صاحَ « عَمْرو بنُ مالِك » : « لا تَقُلْ عَنْ عَمّي إنَّهُ أبوهُ ، فَما هُوَ إلا عَبْدٌ مِنْ عَبيدِهِ، وَمَهْما فَعَلَ فَلَنْ يَنْسى أحَدٌ أنَّهُ ابْنُ « زَبيبَة » جارِيَةِ « شَدّاد » السَّوْداءِ .»

قَبْلَ أنْ يَرُدَّ « مالِك » عَلى كَلِماتِ ابْنِهِ ، دَخَلَتْ « أسماء » زَوْجَةُ « مالِك » صارِخَةً وَهِيَ تَقولُ : « ما هَذا الكَلامُ الغَريبُ الَّذي أسْمَعُهُ مِنْكُما .. لَقَدْ حَمى « عَنْتَرَة » عِرْضَنا ، وَأنْقَذَ « عَبْلَة » مِنْ مَصيرٍ مُخيفٍ – « عَبْلَة » أخْتَكَ ، يا « عمرو » ، وَابْنَتَكَ ، يا « مالك » . أ هَذا جَزاؤُهُ ؛ أنْ تَتَحَدَّثا مِنْ وَرائِهِ بِمِثْلِ هَذا الكَلامِ المَليءِ بِالحِقْدِ الأسْوَدِ ؟»

صاحَ « عَمْرو » في انْفِعالٍ : « الأسْوَدُ هُوَ هَذا العَبْدُ الَّذي تُدافِعينَ عَنْهُ .»

وَقالَ أبوهُ « مالِك » : « يا « أسْماء » ، هَذِهِ أمورٌ لا تَخُصُّ النِّساءَ ، فَاتْرُكي لَنا الحَديثَ فيها .»

صاحَتْ « أسْماء » في غَضَبٍ : « إذا كانَ الأمْرُ يَتعَلَّقُ بِحُرِّيَّةِ هَؤُلاءِ النِّساءِ وَأعْراضِهِنَّ وَكَرامَتِهِنَّ فَهَذِهِ الأمورُ تَخُصُّنا ، وَلا بُدَّ أنْ يَكونَ لَنا كَلِمَةٌ فيها .»

صاحَ « عَمْرو » : « هِيَ الصُّدْفَةُ وَحْدَها الَّتي جَعَلَتْ «« عَنْتَرَة »» يُنْقِذُ «« عَبْلَة »» وَالنِّساءَ ، فَلَوْلا غِيابُ الفُرْسانِ عَنِ الحِلَّةِ ما جَرُؤَ أحَدٌ أنْ يُهاجِمَها .»

قالَتْ « أسْماءُ » في إصْرارٍ : « وَلَكِنَّهُمْ غابوا ، وَ «« عَنْتَرَة »» أنْقَذَنا بِسَيْفِهِ ، وَخَلَّصَ «« عَبْلَة »» بِشَجاعَتِهِ . وَما حَدَثَ بِالأمْسِ مِنَ المُمْكِنِ أنْ يَتَكَرَّرَ في الغَدِ ، وَمَنْ يَدْري أيْنَ سَتَكونُ الفُرْسانُ ساعَتَها ، وَمَنْ يَدْري ماذا يَحُلُّ بِنا لَوْ أغْضَبْتُمْ «« عنترة »» ؟»

صاحَ « عَمْرو » : « أغْضَبْنا «« عَنْتَرَة »» ! هَلْ أصْبَحْنا نُفَكِّرُ في غَضَبِ «« عَنْتَرَة »» إلى هَذا الحَدِّ ؟»

وَقالَ « مالِك بنُ قُراد » – وَقدِ امْتَلأَ وَجْهُهُ بِالغَضَبِ : « لَقَدْ تَجَرَّأَ هَذا العَبْدُ بِفَضْلِ تَشْجيعِ النِّسْوَةِ لَهُ ، فَغَدا يَمْلأُ

الحِلَّةَ بِأشْعارِهِ في ابْنَتِكِ ، هَلْ تَعْرِفينَ هذا ؟ إنَّ الشَّبابَ يَتَسامَرونَ بِشِعْرِهِ ، وَغَدا اسْمُ ابْنَتِكِ مُضْغَةً في الأفْواهِ .»

صَمَتَتْ « أسْماء » تَماماً ، فَلَمْ تَعُدْ تَصْرُخُ أوْ تُحَرِّكُ ذِراعَيْها في انْفِعالٍ ، فَقَطْ نَظَرتْ إلَيْهِ وَهِيَ مَذْهولَةٌ .. وَقالَتْ : « أ هَذا حَقيقِيٌّ ؟ وَلَكِنْ .. وَلَكِنْ .. هَذا شَيْءٌ مُخيفٌ .»

في هُدوءٍ قالَ « مالِك » : « وَهَذا ما نَتَحَدَّثُ عَنْهُ ، يا «« أسْماء »» ، فَاتْرُكينا لِحَديثِنا .»

قالَتْ « أسْماء » : « إنَّهُ كَلامٌ بَريءٌ ، لا تَجْريحَ فيهِ ، وَلا شَيْءَ يَخْدِشُ العَفافَ .»

صاحَ « عمرو » : « أ سَمِعْتِ إذاً هَذا الشِّعْرَ ؟»

قالَتْ « أسْماء » ، وَقَدْ بَدَأتْ نَبَراتُ صَوْتِها تَمْتَلِئُ بِالْخَوْفِ : « نَعَمْ ، سَمِعْتُ بَعْضاً مِنْهُ ، وَلَمْ أجِدْ فيهِ غَضاضَةً .»

قالَ « مالِك » في حَزْمٍ : « تَسْمَعينَ هذا الشِّعْرَ ؟ مِنْهُ

بِالطَّبْعِ ! كَيْفَ تَسْمَحينَ لِنَفْسِكِ بِهَذا ؟»

قالَتْ « أسْماء » : « سَمِعْتُهُ مِنْهُ مَرَّةً واحِدَةً عِنْدَ الغَديرِ، هُوَ كَلامٌ جَميلٌ رَقيقٌ ، وَهُوَ يُحِبُّ «عَبْلَة» حَقًّا ، وَكَلامُهُ فيها فيهِ رِقَّةٌ وَعِفَّةٌ ، وَما أَجْدَرَها أنْ يُقالَ فيها مِثْلُ هَذا الشِّعْرِ وَأَحْسَنَ مِنْهُ أَيْضًا ! وَقَدْ وَعَدْتُهُ يَوْمَ أنْ سَمِعْتُ مِنْهُ هَذا الشِّعْرَ أنْ أُزَوِّجَهُ «خُمَيْسَة» أَمَةَ «عَبْلَة» .» .

صاحَ « مالِك » : « خُمَيْسَة ؟»

قالَ « عَمْرو بنُ مالِك » : « وَلا «خُمَيْسَة» ، «خُمَيْسَة» جارِيَتُنا . نَحْنُ رَبَّيْناها لِتَليقَ بِخِدْمَتِنا لا لِتَذْهَبَ لِخِدْمَةِ هَذا العَبْدِ .»

سَكَتَ « مالِك » وَهُوَ يُطيلُ التَّحْديقَ أَمامَهُ ، ثُمَّ هَزَّ رَأْسَهُ وَ قالَ : « هَذا حَلٌّ مُوَفَّقٌ آخِرَ الأَمْرِ .. نُزَوِّجُ «عَنْتَرَة» «خُمَيْسَة» ؛ فَنَقْطَعُ دابِرَ الأقاويلِ ، وَنوقِفُ سَيْرَ الإشاعاتِ المُغْرِضَةِ .»

اعْتَرَضَ « عَمْرو » في عَصَبِيَّةٍ قائِلاً : « ولكن ...»

رَفَعَ « مالِك » يَدَهُ مُسْكِتًا ابْنَهُ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إلى

« أسْماء » قائِلاً : « كَيْفَ خطَرَتْ لَكِ هَذِهِ الفِكْرَةُ ؟ وَلِماذا لَمْ تُخْبِريني بها قَبْلَ الآنَ ؟»

قالَتْ « أسْماء » ، وَهِيَ مَسْرورَةٌ مِنْ نَفْسِها : « لَقَدْ خَدَمَنا مَرّاتٍ عَديدَةً ، وَأحاطَنا بِجَمائِلِهِ ، كَما أنَّهُ يُحِبُّ « عَبْلَة » أكْثَرَ مِنْ حُبِّهِ لِنَفْسِهِ ، وَيُكَرِّسُ وُجودَهُ كُلَّهُ لِحِمايَتِها وَخِدْمَتِها ، فَأحْبَبْتُ أنْ أكافِئَهُ .»

قالَ « مالِك » وَهُوَ يُسْكِتُ بِنَظَراتِ عَيْنَيْهِ « عَمراً » الَّذي حاوَلَ أنْ يُقاطِعَها أكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ أثْناء حَديثِها : « هَذا ما نَعْرِفُهُ ، فَلِماذا لَمْ تَعْرِضي عَلَيْهِ أمْرَ هَذا الزَّواجِ ، أعْني لِماذا لا تَعْرِضينَهُ عَلى أمِّهِ « زَبيبَة » حَتّى تَتَقَدَّمَ بِاسْمِهِ طالِبَةً يَدَها ؟»

لَمْ يَسْتَطِعْ « عمرو » أنْ يَسْتَمِرَّ في سُكوتِهِ ، فَصَرَخَ رَغْمَ تَحْذيراتِ أبيهِ الواضِحَةِ لَهُ : « هَلْ يَمْلِكُ ثَمَنَها ؟ يَشْتَريها بِماذا ؟ وَكَيْفَ يَطْلُبُ يَدَها وَ هِيَ جارِيَةٌ وَ هُوَ عَبْدٌ ؟»

صاحَ « مالك » : « اُسْكُتْ ، يا ‹‹ عمرو ›› . »

وَلَكِنَّ « عَمْرًا » اسْتَمَرَّ في صِياحِهِ قائِلاً : « الجارِيَةُ تُشْتَرى أوَّلاً ، ثُمَّ تُعْتَقُ لِتَتَزَوَّجَ .. أمّا هَذا الـ ... »

لَمْ يَتْرُكْهُ « مالِك بنُ قُراد » يُكْمِلُ حَديثَهُ ، فَقاطَعَهُ قائلاً في حَزْمٍ : « كَفى ، يا ‹‹ عَمْرو ›› ، كَفى ، وَاتْرُكْني أسْمَعُ ما أريدُهُ مِنْ أمِّكَ . »

قالَتْ « أسْماء » في ارْتِباكٍ : « وَلَكِنَّهُ رَفَضَ . »

صاحَ « عَمْرو » : « مَنْ ؟ ماذا ؟ »

وَصاحَ « مالِك » : « ماذا تَقولين ، يا ‹‹ أسماء ›› ؟ أ عَرَضْتِ عَلَيْهِ أنْ تُزَوِّجيهِ ‹‹ خُمَيْسَة ›› وَرَفَضَ ؟ لِماذا ؟ »

أطْرَقَتْ « أسْماء » بِرَأسِها في حَياءٍ إلى الأرْضِ ، وَقالَتْ في صَوْتٍ هامِسٍ : « إنَّهُ لا يَرى في الدُّنْيا سِوى ‹‹ عَبْلَة ›› ، يا ‹‹ مالِك ›› . »

وَجَمَ الاثْنانِ لِكَلِماتِها ، وقالَ « مالِك » في صَوْتٍ

مُتَخاذِلٍ : « إذاً فَهُوَ صَحيحٌ .. كُلُّ ما يُقالُ صَحيحٌ . »

وَصاحَ « عمرو » : « وَشِعْرُهُ صَحيحٌ ، وَالحِكاياتُ المُتَناقَلَةُ الَّتي تَمْلأُ مَجالِسَ السَّمَرِ صَحيحَةٌ .. هَذا العَبْدُ لا بُدَّ مِنْ قَطْعِ لِسانِهِ ، وَالتَّخَلُّصِ مِنْهُ كُلِّيَّةً .. لا بُدَّ مِنْ قَتْلِهِ . »

شَهَقَتْ « أسْماء » ، وَضَرَبَتْ بِكَفِّها عَلى صَدْرِها ، وَهِيَ تَقولُ : « قَتْلُهُ .. قَتْلُ .. »

بَيْنَما تَمالَكَ « مالِك » نَفْسَهُ وَ هُوَ يَقولُ : « هَيّا بِنا ، يا « عمرو » ، نَرى المَلِكَ « زُهَيْر » وَالأُمَراءَ ، فَلي مَعَهُ وَمَعَهُمُ الآنَ كَلامٌ آخَرُ . »

عِنْدَما يَقولُ عَنْتَرَةُ الشِّعْرَ

كانَ كُلُّ شَيْءٍ ساكِنًا : الهَواءُ ، وَالرِّمالُ ، وَالأَحْجارُ ، وَالشَّمْسُ تَقْتَرِبُ مِنْ كَبِدِ السَّماءِ ، وَالأَغْنامُ تَرْعى ، وَ « شَيْبوب » يَجْلِسُ عِنْدَ حافَةِ صَخْرَةٍ يَنْكُتُ الأَرْضَ بِفَرْعٍ جافٍّ في يَدِهِ .

كانَ كُلُّ شَيءٍ ساكِنًا في الدُّنْيا حَوْلَ « عَنْتَرَة » ، وَلَكِنَّ كُلَّ شَيْءٍ كانَ صاخِبًا فَوّارًا في صَدْرِهِ وَ وِجْدانِهِ . كانَتِ الكَلِماتُ تَتَوَلَّدُ في أَعْماقِهِ ، وَفَجْأَةً يُحِسُّها تَقْفِزُ إلى ذِهْنِهِ لِتَتَشَكَّلَ وَتَتَدافَعَ وَتَنْتَظِمَ ، وَيُرَدِّدُها لِسانُهُ في صَمْتٍ، ثُمَّ تَنْدَفِعَ إلى عَقْلِهِ مِنْ جَديدٍ لِيَحْفَظَها وَيَحْمِلَها في اعْتِزازٍ ؛ فَهِيَ كَنْزُهُ وَمَعْنى وُجودِهِ ، وأَنَّهُ – « الشِّعْر » – عاطِفَةٌ تَجيشُ بِها نَفْسُهُ وَ وِجْدانُهُ ، وَتُرَقِّقُ حِسَّهُ ، وتُرْهِفُ نَفْسَهُ ، ثُمَّ تَتَدَفَّقُ الكَلِماتُ فَتَكادُ الدُّموعُ تَتَواثَبُ إلى

عَيْنَيْهِ ، وَيَكادُ يُحِسُّ أَنَّهُ يَذوبُ في كُلِّ هَذا السُّكون ، فَهُوَ الشَّيْءُ الوَحيدُ الَّذي يَنْطِقُ ، هُوَ الشَّيْءُ الوَحيد الَّذي يَقولُ .. إنْ كانَ هَذا هُوَ الشِّعْرَ ، فَما أَرْوَعَهُ ، وَما أَكْثَرَ ما يُؤْلِمُ ، وَيُوجِعُ القَلْبَ !

وَ « عَبْلَة » تَمْلأُ كَوْنَهُ .. هِيَ العاطِفَةُ الجَيّاشَةُ المُبْهَمَةُ ، وَهِيَ هَذا الدَّفْقُ الَّذي يَأْتي مِنَ الأَعْماقِ بِما يُؤْلِمُ النَّفْسَ حَتّى لَيَكادَ يَصْرُخُ ، وَهِيَ هَذِهِ الكَلِماتُ المُشَكَّلَةُ الَّتي تَبْدَأُ جَنيناً هُلامِيّا ، يُحَوِّلُها ذِهْنُهُ إلى شَيْءٍ مَفْهومٍ مُوَقَّعٍ مَنْغومٍ . هِيَ هَذِهِ الموسيقى الَّتي تُشعُّ بَيْنَ الكَلِماتِ وَمِنَ الكَلِماتِ، وَفي الكَلِماتِ ، ثُمَّ هِيَ – آخِرَ الأَمْرِ – هَذا العَطاءُ الشِّعْـرِيُّ المُشْرِقُ الَّذي يَحْفَظُهُ عَقْلُهُ وَيُرَدِّدُهُ لِسانُهُ في هَمْسٍ لا يَكادُ يَظْهَرُ أَوْ يُسْمَعُ إلا لَهُ وَحْدَهُ .. مِنْهُ الصَّوْتُ ، وَإِلَيْهِ الصَّدى .

إنْ كانَ هَذا هُوَ الشِّعْرُ فَما أَرْوَعَ التَّجْرِبَةَ ، وَيا كَمْ يُحِبُّ « عَبْلَةَ » !

وَإِذا كانَ هَذا هُوَ الحُبَّ فَما أَرْوَعَ العاطِفَةَ ، وَيا كَمْ

يُحِبُّ شِعْرَهُ فيها !

مَعَها يَنسى كُلَّ غُلٍّ يُقَيِّدُ يَدَيْهِ ، وَيَهْزِمُ وُجودَهُ – يَنْسى أَنَّهُ عَبْدٌ ، وَأَنَّ أباهُ لَمْ يَعْتَرِفْ بِبُنُوَّتِهِ ، وَأَنَّهُ أَسْوَدُ ، وَأَنَّهُ يَرعى الغَنَمَ .

مَعَها يَنْسى كُلَّ حِقْدٍ يَمْلأُ قَلْبَهُ ، وَيَطْغى عَلى أَمْنِ نَفْسِهِ ، يَنْسى تَنَكُّرَ القَبيلَةِ ، وَنُكْرانَ أبيهِ ، وَسُخْرِيَةَ السّادَةِ ، وَشَماتَةَ العَبيدِ ، وَالخَطَرَ يَتَهَدَّدُهُ مِنْ كُلِّ مَنِ امْتَلأَ قَلْبُهُ بِالحِقْدِ عَلَيْهِ لأَنَّهُ مَوْجودٌ رَغْمَ أُنوفِهِمْ ، وَلأَنَّهُ فارِسٌ بِسَيْفِهِ وَرُمْحِهِ لا بِميراثٍ وَنَسَبٍ ، وَلأَنَّهُ شُجاعٌ لا يَهابُ المَوْتَ وَالأَخْطارَ ، وَيَفْدي بِروحِهِ سَلامَهُمْ وَغَدَهُمْ .

مَعَها يَنْسى كُلَّ ضَعَةٍ يَجِدُها في نَفْسِهِ ، وَتُلَوِّثُ سَلامَ قَلْبِهِ وَأَمْنَهُ ، يَنْسى أَنَّ أُمَّهُ « زَبيبَة » جارِيَةٌ لا حَوْلَ لَها وَلا قُوَّةَ ، تَعيشُ في كَنَفِ قاهِرِها وَآسِرِها ، وَأَنَّ أَباهُ يَأْنَفُ أَنْ يَعْتَرِفَ أَنَّ « عَنْتَرَة » ابْنُهُ ، وَأَنَّ « عَبْلَة » تَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظْرَةَ الشَّريفَةِ المَنْسوبَةِ إلى عَبْدٍ لا نَسَبَ لَهُ .

أ هِيَ حقّا تنْظُرُ إلَيْهِ مِثْلَ هَذِهِ النَّظْرَةِ ؟ لا بَلْ في نَظْرَتِها الفَهْمُ ، وَالتَّعاطُفُ . تَلْمَعُ عَيْناها – حينَ تَراهُ – تَرْحيباً ، وَتَتَفَتَّحُ أذُناها – حينَ تَسْمَعُ شِعْرَهُ – إعْجاباً وَتَشْجيعاً ، وَتَهْمِسُ لَهُ حينَ يُقْبِلُ ، وَتَسْعى إلَيْهِ حينَ يَعودُ إلى الحِلَّةِ. « عَبْلَة » لا تَرى فيهِ العَبْدَ ، رُبَّما رَأتْ فيهِ الأخَ .. رُبَّما .. رُبَّما رَأتْ فيهِ الصَّديقَ رُبَّما .. وَلَكِنْ تَرى فيهِ حُبَّها ، كَما يَرى – لا يَظُنُّ ، بَلْ يَظُنُّ .. لا .. لا .. هَذا عَذابٌ آخَرُ مُقيمٌ .

وَعادَ الكَلامُ يَمورُ في داخِلِهِ وَيَتَدَفَّقُ إلى عَقْلِهِ وَلِسانِهِ ، وَعادَ جَسَدُهُ كُلُّهُ يَهْتَزُّ مَعَ إيقاعِ الكَلامِ وَنَغَمِهِ . وَتَرَكَ مَكانَهُ ، وَبَدَأ يَتَحَرَّكُ في قَلَقٍ . وَالْتَفَتَ « شَيْبوب » إلى حَرَكَةِ « عَنْتَرَة » فَرَمى العودَ الجافَّ الَّذي كانَ في يَدِهِ ، وَلَمْلَمَ ثِيابَهُ ، وَمَضى نَحْوَهُ مُتَثاقِلَ الخُطا ، وَبَصَرُهُ سارِحٌ في السُّكونِ مِنْ حَوْلِهِ ، فَقالَ « عَنْتَرَة » : « أ سَمِعْتَ ما أقولُ ، يا « شَيْبوب » ؟ »

نَظَرَ إلَيْهِ « شَيْبوب » في دَهْشَةٍ ، وَ وَقَفَ أمامَهُ يَنْظُرُ إلَيْهِ

مُتأمِّلاً ، ثُمَّ قالَ : « كَيْفَ أسْمَعُ كَلاماً لَمْ تَقُلْهُ لي ، يا ‹‹ عَنْتَرَة ›› ؟!»

قالَ « عَنْتَرَة » في حيرَةٍ : « وَلَكِنّي قُلْتُ وَحَسِبْتُكَ سَمِعْتَ .»

جَلَسَ « شَيْبوب » عَلى صَخْرَةٍ أمامَ « عَنْتَرَة » ، ثُمَّ جالَ بِبَصَرِهِ في أخيهِ ، وَهَزَّ رَأسَهُ في فَهْمٍ ، وَقالَ : « هُوَ الشِّعْرُ مَرَّةً أخْرى ، يا ‹‹ عَنْتَرَة ›› ؟!»

نَظَرَ إلَيْهِ « عَنْتَرَة » طَويلاً ، ثُمَّ أطْرَقَ بِرَأسِهِ وَهُوَ يَقولُ :
« لا يَفْهَمُني أحَدٌ غَيْرُكَ ، يا ‹‹ شَيْبوب ›› نَعَمْ هُوَ الشِّعْرُ.»

قالَ « شَيْبوب » : « فَقُلْ ، يا ‹‹ عَنْتَرَة ›› ، أسْمَعُ لَكَ ، وَأفْهَمُ ، وَأعي .»

قالَ « عَنْتَرَة » : « نَعَمْ ، أنْتَ وَحْدَكَ تَسْمَعُ السِّرَّ وَالنَّجْوى ، أنْتَ وَحْدَكَ تَعْرِفُ أنَّني في أعْماقي لَسْتُ الوَحْشَ السّافِكَ لِلدِّماءِ ، لَسْتُ القاتِلَ الَّذي لا يَرْحَمُ ، لَسْتُ فَقَطْ فارِسَ الصِّدامِ ، وَمُرَوِّضَ الوَحْشِ في الآكامِ ،

أنْتَ وَحْدَكَ تَعْرِفُ أَنَّني أيْضاً العَذابُ وَالحَيْرَةُ وَالحُبُّ . أنْتَ وَحْدَكَ تَعْرِفُ سِرّي .»

هَمَسَ « شَيْبوب » : « فَقُلْ ، يا « عَنْتَرَة » ، قُلْ شِعْرَكَ أَسْمَعُ .»

وَمَضى « عَنْتَرَة » يُلْقي شِعْرَهُ ، وَ « شَيْبوب » يَسْمَعُ ، وَالسُّكونُ حَوْلَهُما لا يَخْتَرِقُهُ سِوى صَوْتِ « عَنْتَرَة » وَنَشْوَةِ « شَيْبوب » ، وَالأغْنامُ سَكَتَتْ تُرْهِفُ آذانَها ، وَالهَواءُ وَقَفَ يَسْمَعُ ، وَالشَّمْسُ تَتَحَرَّكُ في بُطْءٍ حَتى لا يَفوتَها شَيْءٌ مِمّا يُقال - وَالرِّمالُ هَدَأَتْ تَسْمَعُ .. فَالشِّعْرُ يُقالُ وَحينَ يُقالُ الشِّعْرُ ، فَالكَوْنُ يَسْمَعُ .

عَبْلَة تَزورُ أمَّ عَنْتَرَة

قالَتْ « عَبْلَة » : « وَلَكِنّي ، يا خالَةُ ‹‹ زَبيبَة ›› أخافُ عَلَيْهِ مِنْ حِقْدِ أعْدائِهِ . عَجيبٌ أنَّ السّادَةَ يَحْقِدونَ عَلَيْهِ ، وَكَذَلِكَ العَبيدُ .»

قالَتْ « زَبيبَة » وَهِيَ تَفْرِشُ بِساطًا نَظيفًا تَحْتَ أقْدامِ « عَبْلَة » وَتُسَوّي شَعْرَها وَمَلابِسَها ، قَبْلَ أنْ تَأخُذَ مَكانَها أمامَها : « أفْهَمُ ، يا ابْنَتي ، وَلَكِنَّ هَذِهِ زِيارَةٌ عَزيزَةٌ ، يا ‹‹ عَبْلَة ›› ؟»

قالَتْ « عَبْلَة » : « سَمِعْتُ ، يا خالَةُ ، كَلامًا مِنْ خَلْفِ السُّتور يَمْلأُ قَلْبي خَوْفًا ، وَأحِسُّ أنَّ الدُّنْيا ظالِمَةٌ ، ظالِمَةٌ .. ظالِمَةٌ .»

ثُمَّ مَضَتْ تَنْخَرِطُ في بُكاءٍ أليمٍ ، وَلَمْ تَعْرِفْ « زَبيبَة » ماذا تَفْعَلُ ، أ تَمْسَحُ دَمْعَها ، أمْ تَضُمُّها إلى صَدْرِها ، أمْ

تَسْأَلُ عَنْ سِرِّ كُلِّ هَذا الحُزْنِ الوافِدِ الغَريبِ ، أم تَبْكي هِيَ الأخْرى وَتُشارِكُها الدُّموعَ ؟ فَعِنْدَها أَلْفُ سَبَبٍ وَسَبَبٍ لِلْبُكاءِ . وَلَكِنَّها وَجَدَتْ نَفْسَها تَقْتَرِبُ مِنْها ، وَتَهْمِسُ حينَ ضَمَّتْ رَأسَها الصَّغيرَ إلى صَدْرِها :

« يَتآمَرونَ مِنْ جَديدٍ عَلَيْهِ ؟ إنَّ حِقْدَهُمْ لا يَهْدَأُ أَبَدًا !»

قالَتْ « عَبْلَة » : « وَمَنْ ؟ أبي وَأخي ! وَقَدْ كانَ يَجِبُ أنْ يَكونا أوَّلَ مَنْ يُدافِعُ عَنْهُ وَيَحْفَظُ لَهُ الجَميلَ . أ لَمْ يُنْقِذْني مِنْ عارِ الأسْرِ ، فَجَنَّبَهُما العارَ وَالمَهانَةَ ؟»

قالَتْ زَبيبَة : « رَبُّ الكَعْبَةِ يَحْفَظُهُ لَنا وَيَصونُهُ ، فَما يَحْمِلُ في قَلْبِهِ إلا الرِّقَّةَ وَالحُبَّ ، وَما يُريدُ إلا حَقَّهُ في أنْ يَكونَ كَغَيْرِهِ سَيِّداً لِنَفْسِهِ ، وَما اخْتَطَّ مِنْ طَريقٍ لِبُلوغِ ما يُريدُ إلا الشَّجاعَةَ وَصِدْقَ الهِمَّةِ ، وَالمُغامَرَةَ بِالرُّوحِ نَفْسِها.»

قالَتْ « عَبْلَة » : « أعْرِفُ ، يا خالَة «« زَبيبَة »» ، وَلِهَذا فَقَلْبي يَنْفَطِرُ عَلَيْهِ خَوْفًا وَإشْفاقًا .»

نَظَرَتْ « زَبيبَة » إلَيْها في دَهْشَةٍ وَضَمَّتْها إلى صَدْرِها ،

وَقَبَّلَتْها ، ثُمَّ قالَتْ : « كَمْ أُحِبُّكِ ، يا « عَبْلَة » ! كَمْ أُحِبُّكِ !»

ضَمَّتْ « عَبْلَة » رَأْسَ « زَبيبَة » إلى صَدْرِها وَرَبَّتَتْ عَلَيْها في حَنانٍ ، وَهِيَ تَقولُ : « وَأنا أَيْضًا ، يا خالَةُ « زَبيبَة » أُحِبُّكِ .»

وَأَحَسَّتْ وَكَأَنَّها هِيَ الكَبيرَةُ ، وَالنّاضِجَةُ ، وَأَنَّ « زَبيبَة » هِيَ الصَّغيرَةُ الَّتي تَحْتاجُ إلى رَحْمَتِها وَحَنانِها ، فَعادَتْ تُقَبِّلُها ، وَهِيَ تَقولُ :

« ماذا بِكِ ، يا خالَةُ « زَبيبَة » ؟»

قالَتْ « زَبيبَة » وَهِيَ تَعْتَدِلُ في جِلْسَتِها ، وَتُجَفِّفُ دَمْعَها بِطَرَفِ شالِها :

« أُحِسُّ بِالسَّعادَةِ ، يا « عَبْلَة » ، السَّعادَةِ الغامِرَةِ الَّتي لا حَدَّ لَها – فَأَنْتِ إذًا تَشْعُرينَ بِحُبِّ « عَنْتَرَة » لَكِ .»

وَبِلا تَرَدُّدٍ قالَتْ « عَبْلَة » : « طَبْعًا ، يا خالَةُ « زَبيبَة » !»

قالَتْ « زَبيبَة » : « وَلا تَرْفُضينَ هذا الحُبَّ ؟»

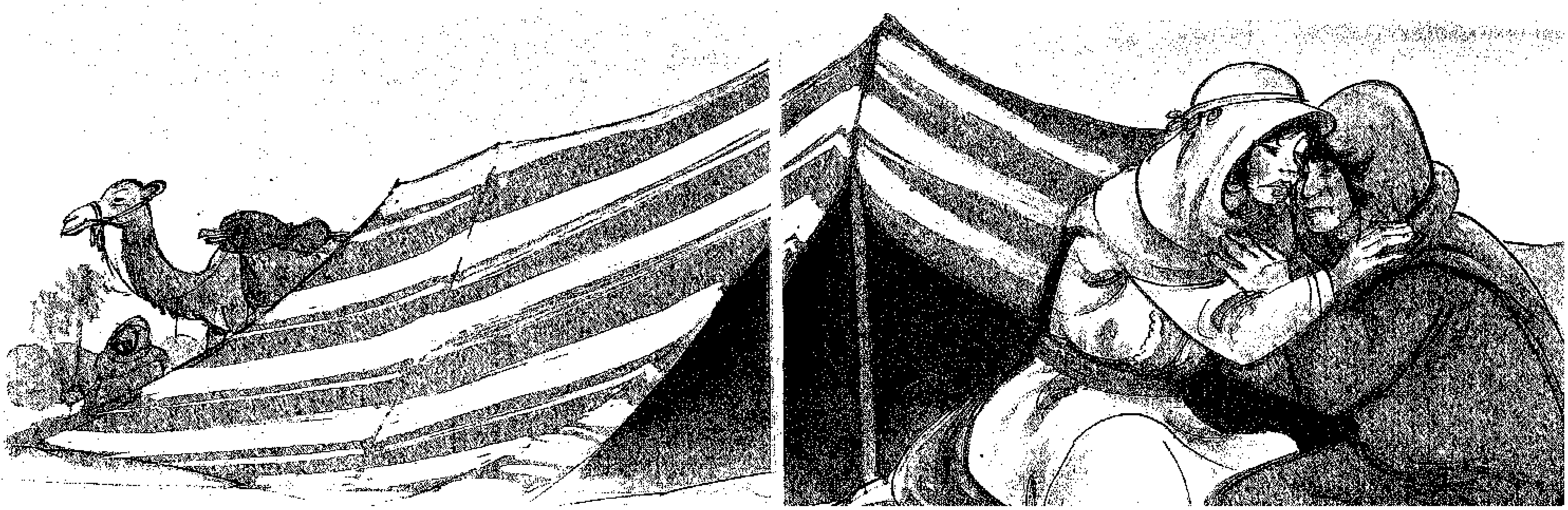

اِعْتَدَلَتْ « عَبْلَة » وَنَظَرَتْ إلى وَجْهِ « زَبيبَة » المَليءِ بِالتَّرَقُّبِ وَالانْتِظارِ ، ثُمَّ خَفَضَتْ رَأسَها وَهِيَ تَقولُ في صَوْتٍ هامِسٍ :

« نَعَمْ ، يا خالَةُ لا أرْفُضُهُ .»

ثُمَّ عادَتْ تَقولُ في عُنْفٍ وَهِيَ تَرْفَعُ رَأسَها في تَحَدٍّ :

« وَكَيْفَ أرْفُضُهُ .. كَيْفَ ، يا خالَةُ ؟ اِحْكي لي .»

قالَتْ « زَبيبَة » ، وَصَوْتُها يَتَرَجَّحُ بَيْنَ العَذابِ وَالأمَلِ :

« هُوَ أسْوَدُ .»

« شَرَفُهُ فِعْلُهُ .»

« هُوَ عَبْدٌ .»

« هُوَ ابْنُ ‹‹ شَدّاد ›› ، وَلا بُدَّ أنْ يَعْتَرِفَ بِهِ عَمّي ‹‹ شَدّاد ›› ، وَهُوَ مَنْ لَهُ بُطولَةٌ وَفُروسِيَّةٌ وَشَهامَةٌ .»

« وَهُوَ ابْني ابْنُ ‹‹ زَبيبَة ›› الجارِيَةِ .»

وَسادَ الصَّمْتُ لَحَظاتٍ . وَطالَتِ اللَّحَظاتُ وَنَظَرَتِ الفَتاةُ

فِي عَيْنِ المَرْأَةِ ، وَشَعَّ الحُبُّ بَيْنَهُما ، وَانْدَفَعَتْ كُلٌّ واحِدَةٍ تَحْتَضِنُ الأُخْرى ، وَأَخَذَتا تَبْكِيانِ في صَمْتٍ ، ثُمَّ دَفَعَتْ « عَبْلَة » جَسَدَ « زَبيبَة » مِنْ حِضْنِها وَهِيَ تَقولُ في لَهْفَةٍ:

« أَلا تَدْرِينَ ، يا خالَةُ ؟ إنَّ أَبي وَأَخي يَتآمَرانِ بِهِ عِنْدَ المَلِكِ وَعِنْدَ السّادَةِ وَعِنْدَ العَبيدِ ، وَهُما يُريدانِ هَلاكَهُ .»

تَمالَكَتْ « زَبيبَة » نَفْسَها ، وَابْتَسَمَتْ وَهِيَ تَقِفُ في اعْتِزاز ، وَقالَتْ :

« بَلْ هُوَ يَنْتَصِرُ عَلَيْهِمْ جَميعاً ، يا « عَبْلَة » . يَكْفي أَنْ يَعْرِفَ أَنَّكِ تَذْكُرينَهُ وَتُحِسّينَ بِهِ .. وَلا .. أَعْنــي .. لا تَرْفُضينَ حُبَّهُ وَ وَلاءَهُ .»

قالَتْ « عَبْلَة » ، وَهِيَ تُلَمْلِمُ ثِيابَها لِتَخْرُجَ مِنْ دارِ « زَبيبَة » :

« أَسْرِعي ، يا خالَةُ ، فَلِلْوَقْتِ الآنَ أَهَمِّيَّتُهُ .. أَسْرِعي .»

نَظَرَتْ « زَبيبَة » في بَلاهَةٍ إلى « عَبْلَة » ، وَكَأَنَّها لا تَسْتَوْعِبُ ما تَقولُ ، ثُمَّ أَسْرَعَتْ فَجْأَةً تُلَمْلِمُ ثِيابَها ،

وَتقولُ :

« هُوَ في خَطَرِ المَوْتِ – «« عَنْتَرَة »» – سَأسْرِعُ إلَيْهِ فَوْراً. هُوَ في المَراعي وَسأحَذِّرُهُ .. نَعَمْ سَأحَذِّرُهُ ، نَعَمْ سَأحَذِّرُهُ ، وَسَيَنْجو وَحَقِّ إلَهِ الكَعْبَةِ ، سَيَنْجو .»

وَبَيْنَما أسْرَعَتْ « زَبيبَة » تُهَرْوِلُ خارِجَةً لا تَلْوي عَلى شَيْءٍ – وَقَفَتْ « عَبْلَة » تَنْظُرُ إلَيْها وَفي عَيْنَيْها دُموعٌ لا تُريدُ أنْ تُخْفِيَها ، وَقَلْبُها يَعْتَصِرُهُ ألَمٌ ، وَيَخْفُقُ بِمَعانٍ كُلُّها الغُموضُ وَالإبْهامُ .

الاسْتِعْدادُ لِلْحَرْبِ

كانَ المَلِكُ « زُهَيْر » في ثَوْرَةٍ عَنيفَةٍ ، يَروحُ وَيَغْدو في خَيْمَتِهِ في عَصَبِيَّةٍ ظاهِرَةٍ . وَكُلُّ أَبْنائِهِ الأمَراءِ ، وَمَعَهُمْ سادَةُ عَبْسٍ يَقِفونَ أمامَهُ في وُجومٍ ، يَنْظُرُ كُلٌّ مِنْهُمْ إلى الآخَرِ في صَمْتٍ وَقَلَقٍ ، وَهُمْ يَتَرَقَّبونَ كَلِماتِهِ . وَأخيراً تَوَقَّفَ المَلِكُ « زُهَيْر » أمامَهُمْ ، وَقالَ : « لَقَدِ انْتَهَزَ بَنو « المُصْطَلَق » فُرْصَةَ انْشِغالِنا عَنِ المَراعي وَالمالِ ، فَهاجَموا بِالأمْسِ أمْوالي وَعَبيدي ، وَأَخَذوا الجَميعَ وَساروا ، وَأنا أنْتَدِبُكُمْ لِلْحَرْبِ وَتَخْليصِ الأمْوالِ .»

وَنَظَرَ الأمَراءُ إلَيْهِ ، وَقَدِ اشْتَعَلَتْ عُيونُهُمْ حَماساً ، وَقالَ « شَدّاد » : « نَحْنُ جَميعاً مَعَكَ .»

« هَذا ما أُريدُهُ ، « مالِك » وَ « زِياد » أَخَوايَ مَعي وَكَذَلِكَ « شَدّاد بن قُراد » وَأخوهُ « مالِك » وَباقي أمَراءِ

عَبْسٍ ، وَيَبْقى « شاس » هُنا وَمَعَهُ « الرَّبيع » لِحِمايَةِ القَبيلَةِ مِنْ أيِّ هَجْمَةٍ ، حَتّى لا يَكونَ في الأمْرِ خُدْعَةٌ وَيُكَرِّروا اليَوْمَ ما فَعَلوهُ بِالأَمْسِ .»

تَقَدَّمَ « الرَّبيعُ بْنُ زِياد » نَحْوَ المَلِكِ ، قائِلاً : « بَنو زياد فِداؤكَ ، يا مَلِكَ عَبْسٍ . أنا وَ أخي « عُمارَة بْنُ زِياد » نُحِبُّ أنْ نَكونَ مَعَكَ .»

ضَحِكَ المَلِكُ « زُهَيْر » وَلَوَّحَ بِيَدِهِ وَقالَ : « أعْرِفُ ، يا « رَبيع » وَمَكانُكُما هُنا مَعَ « شاس » يُطَمْئِنُني عَلى سَلامَةِ الحَريمِ وَالأَمْوالِ .»

ثُمَّ الْتَفَتَ المَلِكُ إلى كُلِّ أميرٍ يُحَدِّدُ لَهُ ما يَأخُذُهُ مِنْ سِلاحٍ وَزادٍ وَعَبيدٍ مُقاتِلينَ مَعَهُ ، وَيُرَتِّبُ أمورَ الحَمْلَةِ القادِمَةِ عَلى خِيامِ بَني « الْمُصْطَلَق » .

* * *

حينَ خَرَجَ « الرَّبيع » وَ « عُمارَة » وَمَعَهُما الأميرُ « شاس » مِنْ جَلْسَةِ المَلِكَ ، لَحِقَ بِهِمْ « عَمْرو بنُ مالِك

ابن قُراد » مُطْرِقَ الرَّأسِ ، وَاسْتَوْقَفَهُمْ قائِلاً : « غارَةُ بَنِي « الْمُصْطَلَق » هَذِهِ سَبَبُها هَذا العَبْدُ المارِقُ « عَنْتَرَة » حينَ قَتَلَ فُرْسانَهُمْ وَأَسَرَ أمْوالَهُمْ .»

قال « شاس » : « بَنو « الْمُصْطَلَق » أعْداؤُنا ، وَيَوْمٌ لَهُمْ وَيَوْمٌ عَلَيْهِمْ ، وَالحَرْبُ بَيْنَنا سِجالٌ حَتّى يَنْهَزِمَ أحَدُنا هَزيمَةً تَعوقُهُ عَنِ القِتالِ مِنْ جَديدٍ .»

قال « عَمْرو بْنُ مالِك » وَكَأَنَّما يُغَيِّرُ مِنْ سِياقِ الحَديثِ : « هَلْ سَمِعْتُمْ ما يَتَناقَلُهُ شَبابُ القَبيلَةِ وَعَبيدُها مِنْ أشْعارِ « عَنْتَرَة » ؟»

ضَحِكَ « عُمارَة » في سُخْرِيَةٍ وَشَماتَةٍ وَهُوَ يَقولُ : « أخيراً تَتَحَدَّثُ عَنْ هَذِهِ الأشْعارِ ، يا « عَمْرو » بَعْدَ أنْ أصْبَحَتْ أخْتُكَ مُضْغَةً في أفْواهِ القَوْمِ كَبيرِهِمْ وَصَغيرِهِمْ عَلى السَّواءِ .»

قالَ « شاس » : « وَاللهِ لا يَنْظُرُ هَذا العَبْدُ الأسْوَدُ إلى نَفْسِهِ وَمكانِهِ أبَداً ، بَلْ هُوَ دائِمُ التَّطَلُّعِ إلى الرِّفْعَةِ في بَني

جِنْسِهِ .»

ضَحِكَ « الرَّبيع بْنُ زِياد » ضِحْكَةً ضَعيفَةً وَقالَ : « في بَني جِنْسِهِ وَحْدَهُمْ . أَ لَمْ تَسْمَعْ ما يَقولُهُ ‹‹ عمرو بن مالِك ›› عَنْ شِعْرِهِ في ‹‹ عَبْلَة ›› ؟ إنَّ تَطَلُّعَهُ يَفوقُ هَذا بِكَثيرٍ .»

قالَ « شاس » : « صَدَقْتَ ، يا ‹‹ رَبيع ›› . إنّ هَذا العَبْدَ قَدْ تَعَدّى وَتَمَرَّدَ ، ثُمَّ أَخَذَ يَسْتَأْسِدُ وَ يَتَنَمَّرُ .»

قالَ « الرَّبيع بْنُ زِياد » : « ما تَرَكَ لِهَذا العَبْدِ ذِكْرًا ، يا ‹‹ شاس ›› إلا أبوكَ ‹‹ زُهَيْر ›› وَأَخوكَ ‹‹ مالِك ›› . وَقَدْ راحَ العَبْدانِ اللَّذانِ قَتَلَهُما بِلا دِيَةٍ ، عَبْدي ‹‹ ضاجِر ›› وَعَبْدُكَ ‹‹ داجي ›› . وَقَدْ أَقْعَدَهُ أبوكَ بَيْنَ السّادَةِ وَسَمِعَ شِعْرَهُ وَخَلَعَ عَلَيْهِ ، وَلَوْلا ذَلِكَ ما زادَ طَمَعُهُ حَتّى طَمِعَ إلى بِنْتِ ‹‹ مالِك بنِ قُراد ›› .»

صاحَ « عَمْرو » في غَضَبٍ وَضيقٍ ، وَهُوَ يَضْرِبُ كَفًّا بِكَفٍّ : « وَأَيْمُ اللهِ إنَّ وَقْعَ النِّبالِ وَقَطْعَ السُّيوفِ لأَهْوَنُ

عَلَيَّ مِنْ سَماعِ هَذا الحَديثِ .»

قالَ « الربيع » في خُبْثٍ : « إنَّ عَبْدي ‹‹ بَسّام ›› كانَ صَديقَ عَبْدي ‹‹ ضاجِر ›› وَعَبْدِكَ ‹‹ داجي ›› ، أَيُّها الأميرُ ‹‹ شاس ›› ، وَهُوَ يَتَحَيَّنُ الفُرْصَةَ مِنْ زَمَنٍ لأسْمَحَ لَهُ أنْ يَنْتَقِمَ لَمَصْرَعِهِما . أما وَقَدْ سَمِعْنا مِنْ ‹‹ عَمْرو بن مالِك ›› ما سَمِعْنا ، وَعانَيْنا مِنْ حُزْنِهِ وَأَلَمِهِ ما نَشْهَدُهُ الآنَ ، فَأَحْسَبُ أنَّ الأوانَ قَدْ آنَ لِكَيْ نُطْلِقَ يَدَهُ لِيُريحَنا مِنْ هَذا اللَّئيمِ الأسْوَدِ ، دونَ أنْ يَكونَ لَنا دَوْرٌ واضِحٌ في الأمْرِ .»

قالَ « شاس » : « لَوْ عَرَفَ المَلِكُ ‹‹ زُهَيْر ›› لأطاحَ بِنا، وَأنا لا أحِبُّ أيَّ خِلافٍ بَيْني وَبَيْنَ أبي .»

قالَ « عَمْرو بن مالِك » : « وَلا يَهُمُّكَ عِرْضي وَما يَمَسُّهُ ؟»

قالَ « شاس » : « بَلْ يَهُمُّني كَما يَهُمُّك ، فَعِرْضُ واحِدٍ فينا هُوَ عِرْضُ الكُلِّ .»

قالَ « عُمارَة بْنُ زِياد » في لُزوجَةٍ وَخُبْثٍ : « خاصَّةً ما يَتَعَرَّضُ لِـ «« عَبْلَة »» ، فَـ «« عَبْلَة »» مِنّا كُلِّنا مَوْضِعُ البُؤرَةِ مِنَ العَيْنِ ، وَلا يَرْضى أحَدٌ أنْ يَنالَ اسْمَها بِسوءٍ .»

قالَ « عَمْرو بن مالِك » : « لا يَهُمُّني في الأمْرِ كُلِّهِ إلا إخْراسُ لِسانِ هَذا الوَغْدِ .»

قالَ « الرَّبيع » في هُدوءٍ وَثِقَةٍ : « إنْ أذِنَ الأميرُ «« شاس »» فَغَيْبَةُ المَلِكِ «« زُهَيْر »» عَنْ مَضارِبِ القَبيلَةِ خَيْرُ فُرْصَةٍ لِتَنْفيذِ ما نُريدُ .»

تَنَهَّدَ « شاسُ بْنُ زُهَيْر » ، وَأجالَ بَصَرَهُ بِالْمُحيطِينَ بِهِ ، وَ وَقَفَتْ عَيْناهُ طَويلاً عِنْدَ وَجْهِ « عَمْرو بن مالِك » المُطْرِقِ في تَعاسَةٍ وَعَذابٍ ، وَقالَ : « لَمْ يَعُدْ في الأمْرِ تَرَدُّدٌ . اِفْعَلْ ، يا «« ربيع »» .»

ضَحِكَ « الرَّبيع » وَهُوَ يَتَحَسَّسُ مَقْبِضَ سَيْفِهِ ، وَقالَ :

« وَأفْعَلُ ، يا «« شاس بن زهير »» .»

ثُمَّ الْتَفَتَ إلى « عمرو بن مالك » وَقالَ : « وَشَرَفُكَ

سَيُصانُ .» ثُمَّ غمَزَ بِعَيْنِهِ وَقالَ لأخيهِ « عُمارَة بن زياد » :
« جائِزَتُكَ لَكَ وَحْدَكَ .»

* * *

قالَ « بَسّام » لِسَيِّدِهِ « رَبيع بن زِياد » :

« هَذا كَلامٌ مُفيدٌ .. أُتْرُكْ لِيَ الأمْرَ .. سَأخْرُجُ لأكْمُنَ لَهُ عِنْدَ عَوْدَتِهِ مِنَ المَراعي ، وَأقْضي عَلَيْهِ .»

قالَ « الرَّبيع » : « أ لَسْتَ واثِقاً مِنْ نَفْسِكَ كَثيراً ؟ مَنْ أدْراكَ أنَّهُ لَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَيْكَ كَما تَغَلَّبَ عَلى «« داجي »» وَعَلى «« ضاجِر »» ؟»

قالَ « بَسّام » وَهُوَ يَبْتَسِمُ في مَرارَةٍ : « هَكَذا أنْتُمْ ، يا سادَةَ عَبْسٍ ، كُلُّ العَبيدِ سَواءٌ عِنْدَكُمْ ، فَهُمْ كُلُّهُمْ سودُ البَشَرَةِ ، وَهُمْ كُلُّهُمْ عبيدٌ ، وَمَنِ اسْتَطاعَ أنْ يَقْضِيَ عَلى واحِدٍ مِنْهُمْ - قَضى عَلى الآخَرِ ، كَأَنَّنا خِرافٌ ، يَعرِفُ ذابِحُها مِنْ أيْنَ يَذْبَحُها .»

قالَ « الرَّبيع » ، وَهُوَ يُحاوِلُ أنْ يَرْسُمَ عَلى وَجْهِهِ

ابْتِسامَةً : « لا تَغْضَبْ ، يا «« بَسّام »» . لَمْ يَكُنْ هَذا ما أعْني ، فَأنا أعْرِفُ قَدْرَكَ بَيْنَ العَبيدِ ، وَلَكِنَّ هَذا الكَلْبَ قَضى مِنْ قَبْلُ عَلى «« ضاجِر »» وَعَلى ...»

قالَ « بَسّام » في غَضَبٍ : « أعْرِفُ ، أعْرِفُ ، وَلَكِنّي سَأعِدُّ لَهُ كَميناً في المَضارِبِ ، وَلَنْ يُفْلِتَ مِنْهُ هَذِهِ المَرَّةَ .»

قالَ الرَّبيعُ : « سَنَخْرُجُ نَحْنُ أيْضاً وَراءَكَ لِنَحْمِيَ ظَهْرَكَ ، فَلا مَجالَ لأيِّ خَطَإٍ هَذِهِ المَرَّةَ .»

وَكادَ « بَسّام » يَحْتَجُّ وَيَرْفُضُ ، وَلَكِنَّهُ حينَ نَظَرَ إلى وَجْهِ سَيِّدِهِ المُكْفَهِرِّ ، أطْبَقَ شَفَتَيْهِ في حَنَقٍ وَانْصَرَفَ ، يُدَمْدِمُ لِنَفْسِهِ في غَضَبٍ .

وَابْتَسَمَ « الرَّبيع » وَهُوَ يَقولُ لِنَفْسِهِ : « هَذا حَسَنٌ ، فَكُلَّما ازْدادَ حَنَقُهُ وَغَضَبُهُ - اشْتَدَّتْ حَماسَتُهُ وَثَوْرَتُهُ .»

زَبيبَة تُحَذِّرُ عَنْتَرَة

كانَ « عَنْتَرَة » مُسْتَلْقِياً تَحْتَ صَخْرَةٍ ناتِئَةٍ يَلْتَمِسُ ظِلَّها ، وَهُوَ يُتَمْتِمُ بَيْنَهُ وَبيْنَ نَفْسِهِ بِأشْعارِهِ الَّتي تُتَرْجِمُ ما بِقَلْبِهِ مِنْ ثَوْرَةٍ وَتَمَرُّدٍ ، وَمِنْ حُبٍّ وَحَنانٍ ، وَمِنْ أَمَلٍ عارِمٍ وَتَطَلُّعٍ عَظيمٍ ، حينَ سَمِعَ صَيْحَةَ أخيهِ « شَيْبوب » مِنَ النّاحِيَةِ الأخْرى مِنَ الجَبَلِ ، وَكَأَنَّما يُحَذِّرُهُ :

« غَبْرَةٌ قادِمَةٌ مِنْ ناحِيَةِ الحِلَّةِ . »

وَتَمَطّى « عَنْتَرَة » وَدَفَعَ بِقَدَمِهِ حَجَراً صَغيراً ، ثُمَّ وَقَفَ وَهُوَ يُجيلُ بَصَرَهُ حَوْلَهُ ، وَكَأَنَّما يَعودُ مِنْ عالَمٍ سِحْرِيٍّ رائِعٍ ، إلى عالَمِ الواقِعِ تَحْتَ الشَّمْسِ القائِظَةِ وَ وَسَطَ الرِّمالِ المُمْتَدَّةِ . وَحَوْلَهُ هذِهِ المَجْموعَةُ الكَسولَةُ مِنَ الأغْنامِ الَّتي تَتَجَمَّعُ وَتَتَلاصَقُ وَكَأَنَّما تَحْتَمي مِنْ هَجيرِ الشَّمْسِ .

وَمَدَّ « عَنْتَرَة » بَصَرَهُ إلى ناحِيَةِ الحِلَّةِ ، وَرَفَعَ كَفَّهُ يَقي

عَيْنَيْهِ وَهَجَ الشَّمْسِ وَهُوَ يُدَقِّقُ النَّظَرَ في الغَبْرَةِ القادِمَةِ نَحْوَ المَرعى .كانَ مِنَ الواضِحِ أَنَّها لِشَخْصٍ واحِدٍ يَجْري نَحْوَهُمْ مُهَرْوِلاً .. لا مَعْنى لِمَجيءِ أحَدٍ في هَذا الهَجيرِ إلى المَرْعى إلا لأمْرٍ هامٍّ . لَعَلَّهُ أَحَدُ العَبيدِ في رِسالَةٍ ما إلَيْهِمْ ، وَلَعَلَّهُ ...

وَقَبْلَ أنْ يَسْتَرْسِلَ « عَنْتَرَة » في الافْتِراضات ، صاحَ « شَيْبوب » الواقِفُ فَوْقَ رَبْوَةٍ عالِيَةٍ : « إنَّها أُمُّنا « زَبيبَة » ، وَهِيَ تَجْري مُسْرِعَةً كَأَنَّ أَمْراً جَلَلاً يَدْفَعُها نَحْوَنا دَفْعاً .»

وَصاحَ « عَنْتَرَة » في دَهْشَةٍ : « أُمّي .. « زَبيبَة » وَفي هَذا الحَرِّ اللافِحِ .. لا بُدَّ .. فِعْلاً أَنَّ الأَمْرَ هامٌّ .. هَيّا نُسْرِعُ نَحْوَها ، يا « شَيْبوب » .»

وَلَمْ يَنْتَظِرْ « عَنْتَرَة » جَوابَ « شَيْبوب » بَلْ أَسْرَعَ يَرْمي عَصاهُ مِنْ يَدِهِ ، وَيَجْري مُهَرْوِلاً ناحِيَةَ « زَبيبَة » الَّتي بَدَأَتْ مَلامِحُ جَسَدِها تَتَّضِحُ مِنْ وَسَطِ الغُبارِ الَّذي تُثيرُهُ جَرْيُها . وَلَكِنَّ « شَيْبوب » سَرْعانَ ما لَحِقَ بِهِ ، ثُمَّ سَبَقَهُ جَرْياً إلى أُمِّهِ ، وَما إنْ وَصَلَ إلَيْها حَتّى وَقَعَتْ عَلى الأَرْضِ في

إعْياءٍ ، فَحَمَلَها ، وَعادَ يَجْري نَحْوَ أخيهِ ، وَحينَ وَصَلَ إِلَيْهِ أرادَ أنْ يُنْزِلَها إلى الأرْضِ فَقال لَهُ « عَنْتَرَةُ » :

« لا ، أنا أحْمِلُها ، وَأسْرِعْ أنْتَ فَانْصُبْ لَها مُلاءَةً نُرْقِدُها تَحْتَها .»

وَحَمَلَها بِرِفْقٍ وَحُنُوٍّ ، وَمَضى يُسْرِعُ نَحْوَ مَكانِهِما ، وَقَدْ سَبَقَهُ « شَيْبوب » بِجَرْيِهِ السَّريعِ الَّذي لا يُجارى ، وَأحَسَّ « عَنْتَرَة » بِقَلْبِهِ يَتَدَفَّقُ حَنانًا وَحُبًّا وَرَحْمَةً . بَدَأتِ الغُضونُ تَمْلأُ وَجْهَها الجَميلَ التَّقاطيعِ ، لَوْنُهُ الأسْوَدُ لا يُخْفي بَياضَ القَلْبِ ، وَلا يَحْجُبُ رِقَّتَهُ ، وَلَكِنَّهُ يُبْرِزُ مَعالِمَ التَّعَبِ وَالنَّصَبِ التي تَرَكَتْ طابَعَها عَلى جَبْهَتِها ، وَتَحْتَ عُيونِها ، وَفي انْفِراجَةِ الفَمِ . وَفَتَحَتْ عَيْنَيْها فَرَأتْهُ يُحَدِّقُ فيها فَضَحِكَتْ ، وَقالَتْ :

« كَمْ حَمَلْتُكَ ، يا «« عَنْتَرَة »»، وَها أنْتَ ذا تَحْمِلُني لأوَّلِ مَرَّةٍ في حَياتِكَ . الآنَ عَرَفْتُ أنَّكَ كَبِرْتَ وَشَبَبْتَ عَنِ الطَّوْقِ حَقًّا .»

ثُمَّ طَوَّقَتْ جيدَهُ بِذِراعَيْها النَّحيلَتَيْنِ ، وَقَبَّلَتْهُ في حَنانٍ ،

وَهِيَ تَقولُ : « أَنْزِلْني ، يا «« عَنْتَرَة »» ، فَما كانَتْ إلا لَحْظَةَ إعْياءٍ عابِرَةً .»

ضَمَّها « عَنْتَرَة » بِشِدَّةٍ إلى صَدْرِهِ وَهُوَ يَهْمِسُ : « أحِسُّ أَنَّني أمْتَلِكُ الكَوْنَ كُلَّهُ وَأنا أحْتَويكِ بَيْنَ ذِراعَيَّ ، يا أمِّ . لَمْ أشْعُرْ أبَداً بِمِثْلِ هَذا الإحْساسِ مِنْ قَبْلُ ، قَلْبي يَنْفَطِرُ حُبّاً وَحَناناً . نَفْسي تَذوبُ شُعاعاتٍ وَأنا أحْمِلُكِ بَيْنَ ذِراعَيَّ ، يا أمِّ . يا عُمْقَ الإحْساسِ ، وَيا عُمْقَ الحُبِّ . الآنَ أسْتَطيعُ أنْ أقولَ إنَّني أحِبُّكِ ، يا أمِّ ، وَأنا أحْميكِ بِذِراعَيَّ مِنْ نَفْحِ ذَرّاتِ رِمالِ الصَّحْراءِ ، وأنا أغَطّيكِ بِرَأسي وَكَتِفي . عليّ أنْ أقِيَكِ مِنْ وَهجِ الحَرِّ وَلَفْحِ الهَجيرِ ، وَأنا أضُمُّ دَقّاتِ قَلْبي إلى دَقّاتِ قَلْبِكِ ، عَلَّها تُعْطيكِ القُوَّةَ كَما أعْطَتْني الحَنانَ .»

وَتَنَدَّتْ عَيْناهُ بِدَمْعٍ حائِرٍ قَلِقٍ ، وَرَفَعَتْ « زَبيبَة » يَدَها المَعْروقَةَ المُجْهَدَةَ تُزيلُ دَمْعاتِ عَيْنَيْهِ ، وَهِيَ تَبْتَسِمُ ، فَيُشْرِقُ وَجْهُها كُلُّهُ ، وَقالَتْ :

« كَمْ حَمَلْتُكَ في داخلي ، ثمَّ حينَ خَرَجْتَ إلى دُنْيا النّاسِ ، حَمَلْتُكَ بيْنَ ذِراعَيَّ أضُمُّكَ إلى قَلْبي كَما تَفْعَلُ الآنَ ، وَأنا أرْقُبُ خَلَجاتِكَ وَسَكَناتِكَ ، الصَّرَخاتِ ، وَالضَّحِكاتِ ، أعُدُّ الكَلِماتِ ، حُروفاً مَدْغومَةً بَدَأتْ ، تَمْتَدُّ وَتَطولُ ، وَتَسْكُنُ وَتَتَحَوَّلُ ، وَقَلْبي واجِفٌ مَعَكَ وَأنْتَ تَجوزُ مُحاوَلاتِكَ الأولى في الكَلامِ . كُلُّها كانَتْ فَرْحَةً لي ، فَرْحَةٌ وَراءَ فَرْحَةٍ ، حَتّى عَرَفْتَ كَيْفَ تَنْطِقُ كَلِماتِكَ الأولى . يا فَرْحَةَ عُمْري ، ساعَتَها نَسيتُ أنَّني أسيرَةٌ ، أنَّني بَعيدَةٌ عَنْ أهْلي وَناسي . كُنْتَ أبي وَأمّي وإخْوَتي . كُنْتَ كُلَّ شَيْءٍ لي ، يا « عَنْتَرَة » .»

وَصَلَ « عَنْتَرَة » إلى الخِباءِ الَّذي صَنَعَهُ « شَيْبوب » ، فَأنْزَلَها في رِفْقٍ عَلى مَجْموعَةٍ مِنَ المُلاءاتِ جَمَعَها « شَيْبوب » وَنَسَّقَها ، وَهَمَسَ قائِلاً : « لَيْسَ حُبٌّ كَحُبِّكِ ، يا أمِّ .»

وَسَكَتَ مُتَلَعْثِماً في كَلِماتِهِ ، في حين اعْتَدَلَتْ « زَبيبَة » في جِلْسَتِها وَهِيَ تَقولُ : « وَأيْنَ « جرير » ؟

وَانْطَلَقَ « شَيْبوب » يَقولُ :

« أحْضِرُهُ لَكِ حالاً ، يا أمّ . هُوَ عِنْدَ الرّابِيَةِ الأخْرى يَرْقُبُ الأبْقارَ .» ثُمَّ انْطَلَقَ يَجْري في سُرْعَتِهِ المُتعاظِمَةِ ، ما إنْ يَمَسُّ الأرْضَ حَتّى يَتْرُكَها في دَفْعِهِ كَأَنَّهُ الرّيحُ الّتي لا تَلْوي عَلى شَيْءٍ .

وَضَحِكَ « عَنْتَرَة » وَهُوَ يَقولُ : « ما الّذي ذَكَّرَكِ بِـ ‹‹ جَرير ›› ، يا أمّ ؟»

تَنَهَّدَتْ « زَبيبَة » وَهِيَ تُسَوّي ثَوْبَها ، وتَمَدَّدَتْ في اسْتِرْخاءٍ ، وَتَقولُ : « أنْتَ لا تَعْرِفُ قَلْبَ الأمِّ ، يا ‹‹ عَنْتَرَة ›› .. إنَّهُ كَوْنٌ واسِعٌ يَحْتَوي كُلَّ أبْنائِها ، أنْتَ وَ ‹‹ شَيْبوب ›› ، وَلكِنْ لا تَكْتَمِلُ فَرْحَتي إلا بِرُؤْيَةِ ‹‹ جرير ›› مَعَكُما ، فَكُلُّكُمْ حُبّي وَنَبْضُ قَلْبي ، وَزَفيرُ أنْفاسي .»

أطْرَقَ « عَنْتَرَة » لَحَظاتٍ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأسَهُ يَتَأمَّلُ في وَجْهِ أمِّهِ ، ثُمَّ قالَ : « الحُبُّ ، يا أمّ لا يَعْرِفُ الأنانِيَةَ ، أنْتِ

تُحِبِّينَ أَوْلادَك ، فَالْكُلُّ في واحِدٍ ، وَلَكِنَّ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ وُجودَهُ وَكِيانَهُ .. عَلَّمْتني ، يا أُمِّ .. عَلَّمْتني ، وَما أَسْعَدَني بِالْمَعْرِفَةِ الجَديدَةِ .»

ضَمَّتْ « زَبيبَة » رَأْسَ « عَنْتَرَة » إلى صَدْرِها وَهِيَ تَبْكي ، وَتَقولُ : « كَمْ أخافُ عَلَيْكَ ، يا « عَنْتَرَة » ؛ كُلُّهُمْ كُلُّهُمْ ، بِكُلِّ حَوْلِهِمْ ، وَمالِهِمْ ، وَثِقَلِهِمْ ضِدَّكَ أَنْتَ وَحْدَكَ .. لِماذا ؟»

وَتَبْكي ، وَتَمْسَحُ وَجْهَها وَعَيْنَيْها وَأَنْفَها وَهِيَ تَقولُ : « أخافُ .. أخافُ .»

فَرَبَّتَ « عَنْتَرَة » عَلى ظَهْرِها وَهُوَ يَقولُ في حُنُوٍّ :

« يا أُمِّ .. لا خَوْفَ بَعْدَ الآنَ . كَمْ خِفْتِ عَلَيْنا ، وَنَحْنُ صِغارٌ ، أَنْ تَدْهَسَنا أَقْدامُ العَمالِقَةِ وَالطُّغاةِ مِنْ بَني عَبْسٍ ! كَمْ خِفْتِ عَلَيْنا ، وَنَحْنُ صِغارٌ ، أَنْ تَتَخَطّانا عُيونُ الأُباةِ الشُّمِّ ، السّادَةِ النُّجُبِ مِنْ بَني عَبْسٍ ! كَمْ خِفْتِ عَلَيْنا أَنْ نَمُرَّ كَما يَمُرُّ العَبيدُ مِنْ بابِ الخِدْمَةِ

وَالعُرْي وَالسُّقْيَةِ ، وَأنْ لا نَكونَ نَحْنُ إلا مِنْ حَيْثُ تُريدينَ لَنا أنْ نَكونَ ! يا أمّ .. كَمْ خِفْتِ !»

بَكَتْ « زَبيبَة » وَ بَكَتْ ، ثُمَّ هَمَسَتْ مِنْ بَيْنِ كَلِماتِها وَشَهيقِها المُتَقَطِّعِ :

« ما كُنْتُ أريدُ لَكَ ، يا « عَنْتَرَة » إلا مَكانَكَ الواضِحَ الصَّريحَ ، فَأنْتَ ابْنُ شداد لا مِراءَ ، وَمَكانُكَ بَيْنَ السّادَةِ مِنْ أقْرانِكَ وَإخْوانِكَ ، وَلَكِنَّهُ أبى ، وَرَفَضَ ، وَتَكَبَّرَ ؛ فَأنْتَ أسْوَدُ ، وَهُوَ لا يُريدُ أنْ يُقِرَّ بِابْنٍ لَهُ أسْوَدَ .. وَمِمَّنْ ؟ مِنْ عَبْدَةٍ سَوْداءَ هِيَ « زَبيبَة » هِيَ أنا .. أنا الَّتي جَلَبْتُ عَلَيْكَ كُلَّ هَذا الهَوانِ وَالعارِ وَالعُبودِيَّةِ ، وَها أنا ذي الآنَ بَعْدَ كُلِّ هَذا أجُرُّ عَلَيْكَ الكَراهِيَةَ ، وَالتَّهْديدَ بِالقَتْلِ .»

قالَ « عَنْتَرَة » وَقَدْ أجْفَلَ لِكَلِماتِ أمِّهِ الأخيرَةِ :

« القَتْلُ ؟»

وَأسْرَعَتْ « زَبيبَة » تَحْكي كُلَّ ما سَمِعَتْهُ مِنْ « عَبْلَة »؛ ما تآمَرَ بِهِ « الرَّبيع » وَ « زِياد » و « عَمْرو بن مالِك »

وَأبوهُ « مالِك بن قُراد » . وَكانَتْ « زَبيبَة » تَبْكي بَيْنَ كَلِماتِها ، وَتُجَفِّفُ دُموعَها بِطَرْفِ ثَوْبِها . وَكانَتِ الحِكايَةُ مُكَرَّرَةً وَمُعادَةً ، وَلَكِنَّ أَهَمَّ ما فيها هُوَ ذِكْرُ « عَبْلَة » ، فَقَدْ تَوَقَّفَ « عَنْتَرَة » عِنْدَ هَذا الاسْمِ الحَبيبِ، وَراحَ يَجولُ بِخَيالِهِ وَأَحْلامِهِ حَوْلَهُ وَحَوْلَ صاحِبَتِهِ ، حَتّى نَسِيَ حَديثَ أُمِّهِ ، وَانْصَرَفَ عَنْ كُلِّ ما تَقولُ ، وَهَمَسَ :

« ‹‹ عَبْلَة ›› ؛ إِنَّها إِذاً تَهْتَمُّ بي وَتَخافُ عَلَيَّ ، وَتَحْزَنُ إِذا ما تَعَرَّضْتُ لِمَكْروهٍ .»

قالَتْ « زَبيبَة » : « مَنْ ؟ ‹‹ عَبْلَة ›› ؟ طَبْعاً يا بُنَيَّ ، إِنَّها تُحِبُّكَ كَما أُحِبُّكَ ، وَتَخافُ عَلَيْكَ كَما أَخافُ عَلَيْكَ .»

اضْطَرَبَ « عَنْتَرَة » وَتَلَعْثَمَ ، وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ يُجيبَ سَمِعَ صَوْتَ « شَيْبوب » يَصيحُ : « ها هُوَ ذا ‹‹ جَرير ›› ، يا أُمّاهُ .. كَفَحْلِ الإِبِلِ لا يَكُفُّ عَنِ الأَكْلِ ، وَلا يَكُفُّ عَنِ النَّوْمِ . وَجَدْتُهُ نائِماً إِلى جِوارِ الأَبْقارِ وَالإِبِلِ .»

انْدَفَعَ « جَرير » يُقَبِّلُ يَدَيْ أُمِّهِ ، بَيْنَما قَبَّلَتْ هِيَ رَأْسَهُ ،

وَرَبَّتَتْ بِحَنانٍ عَلى كَتِفِهِ ، وَقالَتْ :

« تَمْلَؤُني رُؤْيَتُكُمْ مَعاً بِالبَهْجَةِ والأَمَلِ ، وَكُلُّ ما أَتَمَنّاهُ أَنْ تَظَلّوا دائماً ، يَشُدُّ كُلٌّ مِنْكُمْ أَزْرَ أَخيهِ ، فَلا أَحْسَبُ أَنَّ الأيّامَ سَتَصْفو لَكُمْ وَأَنْتُمْ أَصْحابُ هَذِهِ النُّفوسِ الأَبِيَّةِ ، وَلَكِنَّكُمْ مَعاً تَقْهَرونَ كُلَّ عَقَبَةٍ ، فَلا حَسَبَ لَكُمْ وَلا نَسَبَ ، وَلا مَكانَ . وَلَكِنَّكُمْ – رَغْمَ سَوادِ بَشَرَتِكُمْ – فِتْيَةٌ تَمْتَلِئونَ بِحُبِّ الحَياةِ وَحُبِّ الخَيْرِ ؛ وَمِنْ أَجْلِ هَذا سَيُناصِبُكُمُ الجَميعُ العِداءَ .»

ضَحِكَ « جَرير » وَهُوَ يَجْلِسُ إِلى جِوارِ أُمِّهِ ، وَقالَ :

« وَخاصَّةً «« عَنْتَرَة »» ، فَأَنا و «« شَيْبوب »» نَعْرِفُ أَنَّنا لَسْنا مِنْ هَؤُلاءِ القَوْمِ ، وَنَرْضى بِوَضْعِنا البَعيدِ عَنْهُمْ ، وَنَبْتَعِدُ عَنْهُمْ قَدْرَ ما يَبْتَعِدونَ عَنّا . وَنَعْرِفُ أَيْضاً أَنَّنا في الأَسْرِ ، وَلِذَلِكَ نَحْتَمِلُ مَهانَتَهُ بِصَبْرٍ . أَمّا «« عَنْتَرَة »» فَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّهُ مِنْهُمْ ، وَابْنُ سَيِّدٍ مِنْ ساداتِهِمْ ، وَيَطْمَعُ دائماً في مَكانٍ بَيْنَهُمْ يَعْرِفُ أَنَّهُ حَقُّهُ ، وَلَكِنَّهُمْ دائماً لا يَنْسَوْنَ،

وَلا يَرْضَوْنَ .»

قالَتْ « زَبيبَة » ، وَقَدْ عادَتِ الدُّموعُ تَمْلأُ عَيْنَيْها : « سَيَأتي اليَوْمُ الَّذي تَعْرِفانِ أنْتَ وَ « شَيْبوب » أباكُما فيهِ ، وَساعَتَها سَتَفْخَرانِ بِهِ ، وَتَرْفَعانِ رَأسَيْكُما وَسَطَ كُلِّ النّاسِ ، فَهُوَ في قَوْمِهِ لا يَقِلُّ مَكانًا وَرِفْعَةً عَنْ أيٍّ واحِدٍ مِنْ هَؤُلاءِ السّادَةِ الَّذينَ جَعَلا مِنْكُما عَبْدَيْنِ ، وَأَنْتُما في عُمْرِ الزُّهورِ ، وَلَكِنَّ قَدَري وَقَدَرَكُما ...»

قالَ « عَنْتَرَة » وَهُوَ يَخْشى أنْ تَنْخَرِطَ في البُكاءِ مِنْ جَديدٍ : « نَحْنُ ، يا أمِّ ، نَعْرِفُ أنَّكِ مِنْ قَوْمٍ لَهُمْ شَأنٌ وَخُطورَةٌ في بِلادِكِ ، وَلَكِنَّنا الآنَ هُنا ، وَيَجِبُ أنْ نُواجِهَ ما نَحْنُ فيه .»

تَنَهَّدَ « جَرير » وَهُوَ يَقولُ : « صَدَقْتَ ، يا « عَنْتَرَة ».»

صاحَتْ « زَبيبَة » : « وَما نَحْنُ فيه أنَّهُمْ يَتَآمَرونَ عَلى قَتْلِ « عَنْتَرَة » بَعْدَ أنْ خَرَجَ المَلِكُ « زُهَيْر » لِلِقاءِ « بَني المُصْطَلَق ».»

شَحَبَ وَجْهُ « جَرير » ، بَيْنَما قالَ « شَيْبوب » : « مُؤامَرَةٌ دَنيئَةٌ جَديدَةٌ ، أ لَمْ يَسْأموا مِنْ هذا ؟ مَن ِالعَبْدُ الجَديدُ الّذي سَيُضَحّونَ بِهِ هَذِهِ المَرَّةَ ؟»

قالَتْ « زَبيبَة » : « إنَّهُ ‹‹ بَسّام ›› عَبْدُ ‹‹ الرَّبيع ›› .»

قالَ « عَنْتَرَة » : « لَنْ نَنْتَظِرَهُمْ هُنا حَتّى يُحاصِرونا أوْ يَكْمُنوا لَنا ، سَنَعودُ مَعَكِ إلى (الشَّرَبَّةِ والعَلَمِ ِالسَّعْدِيِّ) وَسَأواجِهُ ‹‹ بَسّام ›› وَغَيْرَ ‹‹ بسام ›› هُناكَ ، وَأمامَ الجَميعِ ، حَتّى يَعْرِفَ الكُلُّ مَن ِالمُعْتَدي وَمَن ِالمُعْتَدى عَلَيْهِ ، وَلا يُحَمِّلوني دَمَهُ كَما حَمَّلوني ، دَمَ ‹‹ ضاجِر ›› و ‹‹ داجي ›› مِنْ قَبْلُ .»

قالَ « جَرير » : « لَقَدْ جَعَلَ مَصْرَعُ هَذَيْن ِالعَبْدَيْن ِكُلَّ عَبيدِ عَبْسٍ ضِدَّكَ ، فَهُمْ يُصَدِّقونَ ما يَقولُهُ السّادَةُ مِنْ أنَّكَ المُتَحَرِّشُ وَالمُسْتَفِزُّ ، وَأنَّكَ اسْتَعْمَلْتَ الخُدْعَةَ في صِراعِكَ مَعَهُما .»

وَقالَ « شَيْبوب » : « بَعْضُهُمْ يَعْرِفُ الحَقيقَةَ ، وَلَكِنَّهُ

يَخافُ أنْ يَجْهَرَ بِها حَتّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ ، فَمَن ِاسْتَنامَ لِلْعُبودِيَّةِ لا رَأْيَ لَهُ ، بَلْ رَأْيُهُ دائِماً هُوَ رَأْيُ سادَتِهِ ، وَهَواهُ دائِماً مَعَ هَواهُمْ ، حَتّى وَإنْ كانَ يَعْرِفُ أَنَّهُ يُخالِفُ الحَقيقَةَ ، وَيَخْدَعُ ضَميرَهُ .»

قالَ « عَنْتَرَة » : « لَيْسَ بَيْني وَبَيْنَ أحَدٍ مَعْرَكَةٌ ، لا السّادَةِ وَلا العَبيدِ ، كُلُّ ما أريدُهُ هُوَ حَقّي في المُساواةِ ، حَقّي في أنْ أصْنَعَ يَوْمي وَ غَدي .»

قالَ « شَيْبوب » : « الكَلامُ لا يَنْفَعُ الآنَ ، وَقَدْ صَدَقْتَ في أَنَّهُ يَجِبُ أنْ نَعودَ إلى المَضارِبِ لِتُواجِهَ « بَسّام » هُناكَ أمامَ الجَميعِ ، فَقَطْ لا بُدَّ أنْ يَكونَ كُلُّ عَبيدِ عَبْسٍ حاضِرينَ لِيَعْرِفوا مَن ِ الظّالِمُ وَمَن ِالمَظْلومُ ، فَأيّا كانَ الأمْرُ فَهُمُ الفِئَةُ الَّتي نَنْتَمي إلَيْها شِئْنا أمْ أبَيْنا .»

قالَ « عَنْتَرَة » في انْفِعال : « مَنْ رَضِيَ العُبودِيَّةَ وَالضَّيْمَ أنا لا أنْتَمي إلَيْهِ ، أسْوَدَ كانَ أمْ غَيْرَ أسْوَدَ .»

قالَتْ « زَبيبَة » : « يا بُنَيَّ ، هُمْ لا يَمْلِكونَ لأنْفُسِهِمْ

شَيْئًا .»

قالَ « عَنْتَرَة » في ثَوْرَةٍ : « بَلْ هُمْ يَمْلِكونَ إرادَتَهُمْ وَقُوَّتَهُمْ وَأَنَّهُمْ بَشَرٌ .»

تَنَهَّدَ « شَيْبوب » وَهُوَ يَقولُ : « هَذا أَمْرٌ لا نَحْسِمُهُ الآنَ ، المُهِمُّ أَنَّني أرى أنْ يَذْهَبَ «« جَرير »» إلى كُلِّ مَراعي عَبْسٍ لِيَسْتَدْعِيَ العَبيدَ مِنْ كُلِّ شِعْبٍ وَكُلِّ مَرْعًى، وَيَأتيَ بِهِمْ إلى دِيارِ بَني عَبْسٍ ، حَتّى إذا حَدَثَتْ مَعْرَكَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ «« بَسّام »» كانوا شُهوداً عَلَيْها ، يَحْكونَ لِسادَتِهِمُ الحَقيقَةَ ، وَيُدْرِكونَ في أعْماقِهِمْ أَنَّكَ لَسْتَ عَدُوًّا لَهُمْ .»

هَزَّ « عَنْتَرَة » كَتِفَيْهِ ، وَقالَ : « نَحْنُ نُضَيِّعُ الوَقْتَ في حَديثٍ لا فائِدَةَ مِنْهُ ، وَأَنْتَ سَتُضَيِّعُ الوَقْتَ في عَمَلٍ لا طائِلَ وَراءَهُ .»

قالَ « جَرير » : « بَلْ هُوَ عَلى حَقٍّ ، وَسَأَذْهَبُ لأَجْمَعَ العَبيدَ مِنْ كُلِّ المَراعي ، وَسَأَكونُ في إثْرِكُمْ مَعَهُمْ في أَسْرَعِ وَقْتٍ .»

نَظَرَ « عَنْتَرَة » حَوْلَهُ ، وَحَرَّكَ كَفَّيْهِ في ضيقٍ وَقالَ : « لَوْ كانَ عِنْدي جَوادٌ لَحَمَلْتُكِ عَلَيْهِ ، يا أُمِّ ، إلى المَضارِبِ ، أما وَنَحْنُ لا نَمْلِكُ حَتّى ما نَرْعاهُ مِنْ خَيْلٍ فَسَأَحْمِلُكِ إلى هُناكَ .»

وَقَبْلَ أَنْ تَحْتَجَّ « زَبيبَة » حَمَلَها « عَنْتَرَة » بَيْنَ ساعِدَيْهِ القَوِيَّيْنِ ، وَمَضى مُسْرِعاً نَحْوَ مَضارِبِ عَبْسٍ ، وَ « شَيْبوب » يَتْبَعُهُ ، بَيْنَما أَسْرَعَ « جَرير » نَحْوَ المَراعي المُحيطَةِ بِهِمْ .

* * *

قالَتْ « أَسْماء » لِـ « عَبْلَة » : « أَيْنَ كُنْتِ ؟ لَقَدْ بَحَثْتُ عَنْكِ في كُلِّ مَكانٍ فَلَمْ أَجِدْكِ .»

أَطْرَقَتْ « عَبْلَة » بِرَأْسِها وَ هِيَ تَقولُ : « كُنْتُ عِنْدَ خالَتي ‹‹ سُمَيَّة ›› .»

قالَتْ « أَسْماء » في حِدَّةٍ : « تَعْنينَ أَنَّكِ عِنْدَ ‹‹ زَبيبَة ›› ، فَما تَذْهَبينَ إلى دِيارِ عَمِّكِ ‹‹ شَدّاد ›› إلا لَها .»

قالَتْ « عَبْلَة » ، وَقَدْ رَفَعَتْ رَأْسَها في تَحَدٍّ : « نَعَمْ ،

يا أمّ ، كُنْتُ عِنْدَ خالَتي «« زَبيبَة »» وَكُنْتُ أحَذِّرُها مِمّا يُبيِّتُهُ السّادَةُ مِنْ غَدْرٍ بِابْنِها «« عَنْتَرَة »» .»

وَجِمَتْ « أسْماء » ، وَخَبَطَتْ بِيَدِها عَلى صَدْرِها وَ هِيَ تَقولُ : « تَغْدُرينَ بِأبيكِ وَأخيكِ ، يا «« عَبْلَة »» ؟»

ضَحِكَتْ « عَبْلَة » في مَرارَةٍ ، وَقالَتْ : « أغْدُرُ ؟ مَنِ الَّذي غَدَرَ وَيَغْدُرُ ، يا أمّ ؟ لَقَدْ حَذَّرْتُهُ مِمّا يُبَيَّتُ لَهُ مِنْ غَدْرٍ .»

قالَتْ « أسْماء » في انْفِعالٍ : « حَذَّرْتِهِ هُوَ بِنَفْسِكِ ؟»

قالَتْ « عَبْلَة » : « لَمْ أجِدْهُ فَحَذَّرْتُ خالَتي «« زَبيبَة »» لِتُحَذِّرَهُ ، فَقَدْ أنْقَذَ عِرْضي وَحَياتي ، كَما أنْقَذَ شَرَفَ عَبْسٍ كُلِّها نِساءً وَرِجالاً عَلى السَّواءِ ، وَالْمُقابِلُ الَّذي تُقَدِّمُهُ عَبْسٌ هُوَ الغَدْرُ دائِماً ، وَالهَوانُ دائِماً . تَنْسى عَبْسٌ ، وَيا أسْرَعَ ما تَنْسى ! وَتَغْدُرُ عَبْسٌ ، وَيا أسْرَعَ ما تَغْدُرُ !»

أحَسَّتْ « أسْماء » بِالخَجَلِ فَأطْرَقَتْ رَأسَها ، وَهِيَ تَقولُ : « جَميلُ «« عَنْتَرَة »» لا يُنْسى ، لَكِنَّهُ تَجاوَزَ مَكانَهُ

حَتّى ضَجِرَ مِنْهُ رِجالُ عَبْسٍ .»

قالَتْ « عَبْلَة » : « أَنْ يَطْلُبَ مَكانًا لَهُ بَيْنَ الرِّجالِ كَثيرٌ ؟ أَ يُحْرَمُ مِمّا لا يُحْرَمُ مِنْهُ غَيْرُهُ لأَنَّهُ أَسْوَدُ ، وَلأَنَّ « شَدّاد » عَمّي لا يُريدُ لَهُ أَنْ يَكونَ الأَبَ الحاني العَطوفَ ، كَما هُوَ لَهُ الأَبُ الحَقيقِيُّ ؟ أَ هُناكَ بَشَرٌ يَحِقُّ لَهُمْ كُلُّ شَيْءٍ حَتّى لَوْ كانوا في جُبْنِ « عُمارة » وَخِسَّةِ عَبْدِ « الرَّبيع » « بَسّام » ، حَتّى لَوْ لَمْ يَمْلِكوا شَجاعَتَهُ وَقُدْرَتَهُ وَبَسالَتَهُ وَشَهامَتَهُ ، حَتّى لَوْ كانَ أَمْرُ عَبْسٍ لا يَهُمُّهُمْ ، وَلا يَعْنيهِمْ ؟ إِنَّما كُلُّ ما يَعْنيهِمْ هُوَ أَنْ يَرْتَعوا في خَيْرِ عَبْسٍ وَعِزِّ عَبْسٍ ، وَأَنْ يَتَسَيَّدوا وَيَتَفاخَروا ، وَهُمْ لَيْسوا مِنَ السِّيادَةِ أَوِ الفَخْرِ في شَيْءٍ . لا يا أُمِّ ، لا ...»

صاحَتْ « أَسْماء » تُقاطِعُها : « كُلُّ هَذا كَلامٌ لا مَعْنى لَهُ . وَلَمْ يُخْلَقِ العَبيدُ إِلا لِخِدْمَةِ السّادَةِ ، أَمْ تُريدينَ أَنْ تَقولي إِنَّهُمْ مِثْلُنا ؟»

صاحَتْ « عَبْلَة » : « بَلْ هُمْ مِثْلُنا ، وَفِعْلُهُمْ فِعْلُنا ، وَحَياتُهُمْ حَياتُنا .»

صَرَخَتْ « أسْماء » : « سَمَّمَ هَذا العَبْدُ رَأسَكِ ، وَحَقِّ الكَعْبَةِ سَأطْلُبُ مِنْ « مالِك » أنْ يَمْنَعَكِ نِهائِيًّا مِنْ زِيارَةِ « زَبِيبَة » وَابْنِها الَّذي يَتَفاخَرُ بِنَفْسِهِ ، وَيُلَوِّثُ اسْمَكِ بَيْنَ شَبابِ الحَيِّ بِهَذَيانِهِ .»

أطْرَقَتْ « عَبْلَة » بِرَأسِها ، وَقالَتْ في صَوْتٍ خافِتٍ : « ما أرَقَّ شِعْرَهُ وَأعْذَبَهُ !»

صاحَتْ « أسْماء » : « ماذا ؟»

قالَتْ « عَبْلَة » : « كُنْتُ أحَدِّثُ نَفْسي ، يا أمِّ .»

عادَتْ « أسْماء » تَقولُ في حَسْمٍ :

« حَدِّثي نَفْسَكِ كَما تَشائينَ ، لَكِنّي مِنَ الآنَ أمْنَعُكِ مِنَ الحَديثِ مَعَ « زَبِيبَة » أوْ مَعَ ابْنِها « عَنْتَرَة » .»

زادَ صَوْتُ « عَبْلَة » خُفوتًا وهِيَ تَقولُ لِنَفْسِها :

« لَوْ تَرَكوهُ يَعيشُ !»

هُجومٌ عَلى العَبيدِ

قالَ « بَسّام » وَ هُوَ يُجيلُ النَّظَرَ في العَبيدِ الَّذينَ امْتَطَوْا جِيادَهُمْ خَلْفَهُ : « مِنْ هُنا نَسيرُ عَلَى مَهْلٍ ، فَلَسْنا نُريدُ لِغُبارِ الخَيْلِ وَهِيَ تَجْري أَنْ يُنبِّهَ « عَنْتَرَة » إِلَيْنا .»

ثُمَّ ابْتَسَمَ ابْتِسامَةً ساخِرَةً ، وَهُوَ يَقولُ : « رَكِبْتُمُ الخَيْلَ وَحَقِّ هُبَلَ ، يا عَبيدَ « الربيع » ، مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنَّ بَني « زِياد » يَتْرُكونَ عَبيدَهُمْ يَتَمَتَّعونَ بِرُكوبِ الخَيْلِ ، وَلَكِنْ لِلضَّرورَةِ أَحْكامٌ ، فَـ « عَنْتَرَة » لا يَرْكَبُ جَواداً ، وَنَحْنُ هَكَذا نَفْضُلُهُ ، نَحْنُ نَرْكَبُ وَهُوَ يَمْشي أَوْ يَجْري أَوْ يَفْعَلُ ما يَشاءُ بِقَدَمَيْهِ .. وَمَهْما فَعَلَ فَهُوَ لا يُباري الخَيْلَ .»

قالَ « رَيّان » خادِمُ « عُمارة » الخَاصُّ وَمَكْمَنُ أَسْرارِهِ :

« نَسيتَ « شَيْبوب » ، يا « بَسّام » ؟»

ضَحِكَ « بَسّام » وَهُوَ يَقولُ : « « شَيْبوب » غَيْرُ

«عَنْتَرَة» – شاةٌ شارِدَةٌ ، وَما أسْهَلَ إعادَتَها إلى القَطيعِ !»

صَهِلَتِ الخُيولُ وَهِيَ تَعْدو تَحْتَ وَطْأةِ الشَّمْسِ المُحْرِقَةِ، وَقَدْ أحْنى الرِّجالُ رُؤوسَهُمْ لِيُجَنِّبوا عُيونَهُمْ وَهَجَها المُحْرِقَ . وَدَفَعَ «رَيّان» جَوادَهُ حَتّى اقْتَرَبَ مِنْ «بَسّام» وَقالَ لَهُ :

« لَوْ سَمِعْتَ كَلامي ، يا «« بَسّام »» ، لَكُنّا قَدْ وَصَلْنا إلى مَكانِ «« عَنْتَرَة »» في المَرْعى !»

ضَحِكَ « بَسّام » وَهُوَ يَقولُ : « أنا لا أريدُ لِعَيْنِ «« شَيْبوب »» اليَقِظَةِ أنْ تَلْمَحَنا فَتُحَذِّرَ «« عَنْتَرَة »» ، وَإنَّما نَحْنُ نَدورُ حَوْلَ المَراعي ، وَنأتي مِنَ الخَلْفِ . وَلَوْ جِئْنا مِنْ ناحِيَةِ المَضارِبِ لأثارَ وُجودُنا أسْئِلَةً تَدْفَعُ «« عَنْتَرَة »» إلى الاسْتِعْدادِ ، وَإنَّما نَحْنُ بِسُلوكِنا هَذا الطَّريقَ نُطْبِقُ عَلَيْهِ مِنْ خَلْفِهِ وَقَبْلَ أنْ يَأخُذَ لِلأمْرِ أهَمِّيَّةً .»

قالَ « رَيّان » وَهُوَ يَضْحَكُ في سُخْرِيَةٍ : « أنْتُمْ تَحْسِبونَ لِهَذا الصَّبِيِّ حِساباً كَبيراً ، وَما هُوَ إلا صَبِيٌّ صَغيرٌ .»

لَمْ يُجِبْ « بَسّام » عَلى كَلِماتِ « رَيّان » ، وَإنَّما أخَذَ يَنْظُرُ حَوْلَهُ في قَلَقٍ ، وَقَدْ بَدَأ شَيْءٌ كَالهاجِسِ يَمْلأُ قَلْبَهُ بِالخَوْفِ ، وَكَأنَّما أحَسَّ العَبيدُ بِقَلَقِهِ ؛ إذْ بَدَأتْ حَرَكَةُ الجِيادِ تُبْطِئُ ، بَيْنَما انْدَفَعَ عَبْدٌ مِنَ الخَلْفِ حَتّى وَصَلَ إلى مَكانِ « بَسّام » وَقالَ لَهُ بِصَوْتٍ يَنْطِقُ بِالخَوْفِ :

« نَقِفُ ، يا «« بسام »» أوْ نَعودُ ، فَهَذِهِ خَرْجَةٌ مَنْحوسَةٌ مِنْ أوَّلِها .»

تَمالَكَ « بَسّامٌ » نَفْسَهُ ، بَيْنَما ضَحِكَ « رَيّان » في سُخْرِيَةٍ ، وَهُوَ يَتَلَفَّتُ حَوْلَهُ في غَضَبٍ وَقالَ : « تَخافونَ كُلُّكُمْ وَتَخافونَ .. وَمِمَّنْ ؟ مِنْ هَذا الصَّبِيِّ ؟

قالَ « بَسّام » في حِدَّةٍ : « اسْكُتْ ، يا «« ريان »» ، فَلَيْسَ هَذا وَقْتَ التَّباهي وَالسُّخْرِيَةِ .»

ثُمَّ الْتَفَتَ إلى العَبْدِ الآخَرِ وسَأَلَهُ : « ما الَّذي يُقْلِقُكَ ، يا «« بَدْر »» ؟»

كانَ وَجْهُ « بَدْر » مُسْتَديراً مُضْحِكاً في شِدَّةِ اسْتِدارَتِهِ وَفَطْسِ أَنْفِهِ ، وَضيقِ عَيْنَيْهِ ، وَفَمِهِ المَفْتوحِ دائِماً في ابْتِسامَةٍ لا مَعْنى لَها . وَلَكِنَّ هذا الوَجْهَ كانَ الآنَ مَليئاً بِالقَلَقِ وَالخَوْفِ ، وَتَلَفَّتَ حَوْلَهُ وَقالَ : « يُقْلِقُني أنا وَالآخَرينَ ، الصَّمْتُ .»

حَرَّكَ « بَسّام » جَوادَهُ لِيَزْدادَ اقْتِراباً مِنْ « بَدْر » وَهُوَ

يُجيلُ عَيْنَيْهِ في وُجوهِ الرِّجالِ الآخَرينَ فَيَجِدُها كُلَّها مَليئَةً بِالقَلَقِ وَالحَيْرَةِ ، بَيْنَما ظَهَرَتْ عَلاماتُ الخَوْفِ عَلى بَعْضِها ، وَقالَ : « الصَّمْتُ !»

ضَحِكَ « رَيّان » وَهُوَ يَدورُ بِجَوادِهِ فَتُحْدِثُ سَنابِكُهُ دُوّاماتٍ مِنَ الغُبارِ حَوْلَهُ ، وَقالَ : « «« بَسّام »» لا يُريدُ إلا الصَّمْتَ لِيَحْتَمِيَ بِهِ مِنْ غَضَبِ «« عَنْتَرَة »» .»

صاحَ « بَسّام » في صَبْرٍ نافِدٍ : « اسْكُتْ ، يا «« ريان »» ، لَقَدْ لاحَظْتُ هَذا الصَّمْتَ يَسودُ المَراعِيَ مِنْ فَتْرَةٍ ، وَلِهذا طَلَبْتُ المَزيدَ مِنَ الحَذَرِ في سَيْرِنا بِالخَيْلِ .. وَلَكِنّي لا أجِدُ فيهِ ما يُخيفُ .»

قالَ « بَدْر » : « لَقَدْ مَرَرْنا عَلى أكْثَرِ مِنْ مَرْعًى مِنْ مَراعي عَبْسٍ ، وَلا عَبيدَ في المَرعى ، وَكَأَنَّ العَبيدَ جَميعاً قَدْ هَجَروا المَراعي .»

قالَ « رَيّان » : « كُسالى كَالمُعْتادِ ، يَحْتَمونَ ، بِظِلِّ صَخْرَةٍ أوْ كَهْفٍ قَريبٍ مِنْ هَجيرِ الشَّمْسِ .»

وَعادَ « بَدْر » يَقولُ ، وَصَوْتُهُ يَزْدادُ عَصَبِيَّةً ، وَمَلامِحُ وَجْهِهِ تَشي بِخَوْفٍ يَتَزايَدُ : « أَ كُلُّهُمْ قَرَّروا أَنْ يَهْجُروا المَرْعى جَميعًا وَ مَرَّةً واحِدَةً ؟»

أَخَذَ « بَسّام » يَتَلَفَّتُ حَوْلَهُ ، وَحَتّى « رَيّان » بَدَأَ يَتَمَلْمَلُ في جِلْسَتِهِ فَوْقَ صَهْوَةِ جَوادِهِ ، وَرَفَعَ « بَسّام » يَدَهُ فَوَقَفَ العَبيد جَميعًا ، وَتَقَدَّموا بِخُيولِهِمْ حَتّى أَحاطوا بِـ « بَسّام » الَّذي أَدارَ فيهِمْ وَجْهًا كالِحًا مُضْطَرِبًا وَقالَ :

« لَسْتُ أُحِبُّ ما يُثارُ في هَذا المَكانِ مِنْ إِحْساسٍ ، وَالرَّأْيُ عِنْدي أَنْ يَتَقَدَّمَ مِنّا اثْنانِ يَسْتَكْشِفانِ الطَّريقَ ، وَنَتْبَعُهُما نَحْنُ عَلى مَهْلٍ .»

قالَ « رَيّان » : « لَسْتُ أَدْري مِمَّ تَخافُ حَقيقَةً ؟»

ثُمَّ تَلَفَّتَ يُحَدِّقُ في الوُجوهِ المَذْعورَةِ حَوْلَهُ وَقالَ :

« ما «« عَنْتَرَة »» إِلا فَتًى واحِدٌ ، وَلَيْسَ لَدَيْهِ مَنْ يُعينُهُ غَيْرُ أَخَوَيْهِ ، وَنَحْنُ نَتَفَوَّقُ عَلَيْهِمْ في العَدَدِ وَالعُدَّةِ ، فَلِماذا كُلُّ هَذا الحَذَرِ ، وَلِماذا كُلُّ هَذا الخَوْفِ ؟»

قالَ « بَدْر » وَهُوَ يَجِدُ صُعوبَةً في الاحْتِفاظِ بِهُدوءِ جَوادِهِ : « لا أدْري ، يا «« رَيّان »» ، وَلَكِنَّ قَلْبي يُحَدِّثُني بِخَطَرٍ داهِمٍ ، وَأنا لا أُكَذِّبُ هَذا الإحْساسَ أبَداً .»

وَقالَ « بَسّام » : « لا أسْتَطيعُ أنْ أعودَ إلى الحِلَّةِ دونَ رَأسِ «« عَنْتَرَة »» وَإلا جَعَلَ مِنّي سَيِّدي «« الرَّبيع بن زِياد »» عِبْرَةً لِمَن يَعْتَبِرُ .. وَيَجِبُ أنْ نَمْضِيَ إلى مُهِمَّتِنا ، لِيَذْهَبِ اثْنانِ مِنّا يَسْتَطْلِعانِ الطَّريقَ .»

وَجَعَلَ العَبيدُ يَنْظُرونَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ ، وَلَيْسَ مِنْ أحَدٍ مِنْهُمْ يَتَقَدَّمُ لِيَتَطَوَّعَ أنْ يَكونَ مِنْ هَذِهِ الطَّليعَةِ الَّتي يُريدُها « بَسّام »، بَلْ جَعَلَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَتَقَهْقَرُ بِجَوادِهِ وَيَنْظُرُ إلى سَرْجِ الجَوادِ في إمْعانٍ حَتّى لا تَقَعَ عَيْنا « بَسّام » عَلى عَيْنَيْهِ . وَأحَسَّ « بسام » بِخَوْفِهِمُ الَّذي يَتَزايَدُ وَالَّذي يَجِدُ صَداهُ في الخَوْفِ الَّذي يَغْمُرُ قَلْبَهُ ، فَقَرَّرَ أنْ يَخْتارَ هُوَ مَنْ يَذْهَبُ مِنْهُمْ وَيَحْسِمُ الأمْرَ ، وَرَفَعَ رَأسَهُ وَأدارَها بَيْنَهُمْ، ثُمَّ قالَ :

« ‹‹ رَيّان ›› سَتَذْهَبُ أنْتَ ، فَأنْتَ لا تُبْدي خَوْفًا من شَيْءٍ حَتّى وَلا مِنْ ‹‹ عَنْتَرَة ›› وَاخْتَرْ بِنَفْسِكَ مَنْ سَيَصْحَبُكَ .»

حَرّكَ « رَيّان » جَوادَهُ مُبْعِداً إيّاهُ عَنْ جَوادِ « بَسّام » ، وَقَدِ اكْتَسى وَجْهُهُ بِخَوْفٍ مُفاجِئ ، وَقالَ : « لا ، أنا مَعَكُمْ أذْهَبُ حَيْثُ تَذْهَبونَ ، وَلا فائِدَةَ مِنَ التَّفَرُّقِ فَتَضْعُفُ قُوَّتُنا .. لا ، يا ‹‹ بَسّام ›› ، نَحْنُ نَظَلُّ جَميعاً مَعاً .»

ضَحِكَ « بَسّام » في مَرارَةٍ ، وَقالَ : « إذاً نَذْهَبُ مَعاً .»

وَلَكِنْ ما كادَ يَنْطِقُ بِالكَلِماتِ حَتّى دَوَّتِ الصَّيْحَةُ تَأخُذُهُمْ مِنْ كُلِّ جانِبٍ :

« يا لَثاراتِ بَني الْمُصْطَلَقِ ! يا لَثاراتِ بَني الْمُصْطَلَقِ !»

وَصَهِلَتَ الخُيولُ في خَوْفٍ ، بَيْنَما أحاطَهُمْ غُبارٌ كَثيفٌ مِنْ كُلِّ ناحِيَةٍ ، سَرْعانَ ما انْكَشَفَ عَنْ فُرْسانٍ عَديدينَ يُلَوِّحونَ بِسُيوفِهِمْ وَرِماحِهِمْ فَتَنْعَكِسُ عَلَيْها أشِعَّةُ الشَّمْسِ وَتَتَوَهَّجُ وَكَأنَّها سِهامٌ تَنْغَرِسُ في قُلوبِهِمُ الواجِفَةِ .»

وَصاحَ « بَسّام » : « انْزِلوا عَنْ خُيولِكُمْ فَهُمْ يَظُنّونَنا مِنْ فُرْسانِ عَبْسٍ ، وَما نَحْنُ إلا عَبيدٌ لا مَكانَ لَنا في قِتالٍ .»

وَنَزَلَ العَبيدُ عَنْ خُيولِهِمْ مُسْرِعينَ ، وَأَجْفَلَتِ الجِيادُ وَجَرَتْ مَذْعورَةً ، فانْطَلَقَ وَراءَها بَعْضُ الفُرْسانِ المُهاجِمينَ.

بَيْنما عادَ « بَسّام » يَقولُ : « اِرْموا السِّلاحَ ، ارْموا السِّلاحَ ، وَانْبَطِحوا عَلى الأَرْضِ .»

وَأَسْرَعَ هُوَ يُنَفِّذُ ما أَمَرَ بِهِ وَإِلى جِوارِهِ « رَيّان » وَ « بَدْر »، وَهُما يَرْتَجِفانِ ذُعْراً ، وَ وَراءَهُ باقي العَبيدِ يَنْبَطِحونَ عَلى التَّوالي عَلى الأَرْضِ ، وَقَدْ رَمَوا أَسْلِحَتَهُمْ ، وَأَجْسادُهُمْ تَهْتَزُّ خَوْفاً .

وَصاحَ صَوْتٌ قَوِيٌّ ، خَرَجَ إِلَيْهِمْ صاحِبُهُ عَلى جَوادِهِ الضَّخْمِ مِنْ وَسَطِ الغَبْرَةِ :

« هَؤُلاءِ عَبيدٌ ، أَمْسِكوا بِهِمْ وَارْبُطوهُمْ غَنيمَةً لَنا ، وَأَسْرِعوا نَجْمَعُ ما في المَراعي مِنْ أَمْوالٍ فَهِيَ مِلْكٌ لَنا ، وَعَسى أَنْ يُوَفَّقَ الباقونَ في أَخْذِ الحِلَّةِ بِهَذِهِ السُّهولَةِ هُناكَ .»

* * *

قالَ « عَمْرو بن مالك » لِـ « الرَّبيع بن زِياد » : « وَعَدْتَ أنْ تَخْرُجَ وَراءَ « بَسّام » لِتَتَأكَّدَ مِنَ انْتِصارِهِ وَعَبيدِهِ عَلى «‹ عَنْتَرَة ›» ، وَها نَحْنُ أوْلاء ما زِلْنا قُعوداً .»

ضَحِكَ « الرَّبيع » وَرَبَّتَ عَلى كَتِفِ « عَمْرو » وَهُوَ يَقولُ : « السّادَةُ لا يُحارِبونَ العَبيدَ ، وَلا يُحارِبونَ مَعَ العَبيدِ .»

وَضَحِكَ « عُمارَة » وَهُوَ يَقولُ : « لَقَدْ أرْسَلْتُ مَعَهُمْ عَبْدِيَ ‹‹ رَيّان ›› وَهُوَ وَحْدَهُ يَسْتَطيعُ التَّغَلُّبَ على ‹‹ عَنْتَرَة ›› .»

بَيْنَما قالَ الأميرُ « شاس بن زُهَيْر » : « لَوْ طالَ غِيابُهُمْ نَلْحَقُ بِهِمْ . وَالرَّأيُ أنْ نَجْمَعَ باقي فُرْسانِ القَبيلَةِ الَّذينَ لَمْ يَخْرُجوا مَعَ أبي في غَزْوَتِهِ لِبَني الْمُصْطَلَقِ .»

ضَحِكَ « الرَّبيع بن زِياد » في سُخْرِيَةٍ ، وَهُوَ يَقولُ :

« نَجْمَعُهُمْ مِنْ أجْلِ ‹‹ عَنْتَرَة ›› ؟ ما هَذا الكَلامُ أيُّها الأميرُ ؟»

نَظَرَ إِلَيْهِ « شاس » في بُرودٍ وَهُوَ يَقولُ : « بَلْ نَجْمَعُهُمْ مِنْ أَجْلِنا ، يا «« ربيع »» . أَ لَمْ يَتْرُكْ لَنا المَلِكُ «« زُهَيْر »» أَمْرَ حِمايَةِ الحِلَّةِ ؟ ماذا فَعَلْنا مِنْ ساعَةِ خُروجِهِ بالفُرْسانِ إلا الحَديثَ عَنْ «« عَنْتَرَة »» ؟ ماذا لَوْ دَهَمَنا عَدُوٌّ غَريبٌ وَمُعْظَمُ الفُرْسانِ مَعَ المَلِكِ ؟ اِذْهَبْ ، يا «« عَمْرو »» فَمُرَّ عَلى الفُرْسانِ جَميعاً لِيَلْتَقوا عِنْدي هُنا .»

قالَ « عَمْرو بن مالِك » في سَذاجَةٍ : « يَحْضُرونَ بِأَسْلِحَتِهِمْ ؟»

ضَحِكَ « عُمارَة بن زِياد » وَقالَ في سُخْرِيَةٍ : « وَخُيولِهِمْ أَيْضاً ؟ أَمْ تُريدُ أَيُّها الأَميرُ أَنْ يَمْشِيَ الفُرْسانُ وَهُمْ مُدَجَّجونَ بِالسِّلاحِ .»

قَبْلَ أَنْ يُجيبَ الأَميرُ « شاس » ، ارْتَفَعَ الصُّراخُ في الحِلَّةِ ، وَصاحَ صائِحٌ :

« غَزْوَةٌ ! فُرْسانٌ يُهاجِمونَ الحِلَّةَ ! غارَةٌ .. غارَةٌ !»

وَارْتَفَعَتْ صَرَخاتُ النِّساءِ وَعَلا صَهيلُ الخَيْلِ ، وَنَبَحَتِ

الكِلابُ في غَضَبٍ وَخَوْفٍ ، في حين سَمِعَ الجَميعُ وَسَطَ الضَّجَّةِ العالِيَةِ ، صَوْتاً قَوِيّا يَصيحُ :

« يا لَثاراتِ بَني الْمُصْطَلَقِ ! يا لَثاراتِ بَني الْمُصْطَلَقِ !»

وَصاحَ الأميرُ « شاس » : « السِّلاحَ ... السِّلاحَ !»

و انْدَفَعَ الجَمْعُ كُلٌّ يَبْحَثُ عَنْ سِلاحِهِ ، لِيُواجِهَ الغُزاةَ.

* * *

قالَتْ « زَبيبَة » لِـ « عَنْتَرَة » وَهِيَ تَرْقُبُ وَجْهَهُ الحاني عَلَيْها وَالْمَلِيءَ بِالرِّقَّةِ وَالحُبِّ : « أنْزِلْني ، يا بُنَيَّ ، أسيرُ باقي الطَّريقِ إِلى الحِلَّةِ ، فَقَدِ اقْتَرَبَتِ الدِّيارُ .»

ضَحِكَ « عَنْتَرَة » ، وَازْدادَتْ ضَمَّتُهُ لَها إِلى صَدْرِهِ العَريضِ ، وَقالَ : « أنْتِ خَفيفَةُ الوَزْنِ ، يا أُمِّ ، أرْهَقَكِ العَمَلُ ، وَأَنَّكِ لا تَنْتَظِمينَ في الطَّعام ، فَخَفَّ وَزْنُكِ وَسَهَلَ حَمْلُكِ .»

وَكانَ « شَيْبوب » يَجْري إِلى جِوارِهِما وَهُوَ يَتَلَفَّتُ حَوْلَهُ ، وَيُكْثِرُ النَّظَرَ إِلى وَرائِهِ ، ثُمَّ يَعودُ وَيَنْظُرُ إِلى الجَنوبِ

ناحِيَةَ المَراعِي ، وَفَجْأَةً تَوَقَّفَ وَقالَ لِـ « عَنْتَرَة » :

« سَأَتْرُكُكُما هُنا وَأَعودُ حالاً ، فَفي نَفْسي هاجِسٌ أَنَّ شَيْئًا قَدْ حَدَثَ في المَراعي .»

لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ « عَنْتَرَة » بَلْ ظَلَّ في سَيْرِهِ الحَثيثِ وَهُوَ يَقولُ لأُمِّهِ المَحْمولَةِ بَيْنَ ذِراعَيْهِ :

« لَوِ اسْتَطَعْتُ ، يا أُمِّ لَحَمَلْتُكِ دائِماً حَتّى أُجَنِّبَكِ عَثْرَةَ الطَّريقِ ، وَمَشَقَّةَ السَّيْرِ ، وَما هَذا الانْتِقالُ بَيْنَ المَرعى وَالحِلَّةِ إلا راحَةٌ لي أُحِسُّها وَأَنا أَضُمُّكِ إِلى قَلْبي ، يا صاحِبَةَ أَرَقِّ القُلوبِ وَأَحْناها .»

ضَحِكَتْ « زَبيبَة » وَهِيَ تُزيلُ بِيَدِها قَطراتِ عَرَقٍ نَدَّتْ عَلى جَبْهَتِهِ وَقالَتْ : « ما أَرَقَّكَ يا بُنَيَّ ! حَقّا إِنَّكَ لَتَحْمِلُ في أَعْماقِكَ قَلْبَ شاعِرٍ !»

عِنْدَما أَحَسَّ « شَيْبوب » أَنَّ أَحَداً لا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ ، قالَ : « سَأَذْهَبُ أَنا وَأَعودُ حالاً .» ثُمَّ أَتْبَعَ القَوْلَ بِالعَمَلِ ، فَتَرَكَهُما وَأَسْرَعَ يَجْري ناحِيَةَ الجَنوبِ ، وَهُوَ يَنْهَبُ الأَرْضَ

نَهْبًا بِجَرْيِهِ السَّريعِ الَّذي يُسابِقُ الرِّيحَ .»

* * *

صاحَتْ « أسْماء » :

« أ تَسْمَعينَ هَذا الصُّراخَ ، يا ‹‹ عَبْلَة ›› ؟»

صاحَتْ « عَبْلَة » : « إنَّها غارَةٌ ، يا أمُّ ، وَهُمْ فُرْسانُ ‹‹ بني الْمُصْطَلَق ›› .»

وَانْدَفَعَتْ نَحْوَها « سُمَيَّة » تَقْتَحِمُ الخِباءَ قائِلَةً : « أسْرِعْنَ نَهْرُبُ إلى خارِجِ الحِلَّةِ ، وَإلا وَقَعْنا في الأسْرِ جَميعًا .»

صاحَتْ « أسْماء » وَهِيَ تُلَمْلِمُ حاجِيّاتِها في عَجَلَةٍ : « اِحْمِلي الذَّهَبَ ، يا ‹‹ عَبْلَة ›› ، وَصُرَّةَ النُّقودِ ، وَالثَّوْبَ الحَريرَ .»

صاحَتْ « سُمَيَّة » : « لا وَقْتَ لِهَذا ، لَوْ أسَرَنا ‹‹ بنو الْمُصْطَلَق ›› ما نَفَعَ هَذا في شَيْءٍ .. هَيّا .»

وَفَجْأةً انْدَفَعَتْ نَحْوَ الخِباءِ مَوْجَةٌ مِنَ النِّساءِ وَالجَواري ، وَكُلُّ واحِدَةٍ تَحْمِلُ في يَدِها حِمْلاً ، وَعَلى ظَهْرِها

حِملاً ، وَهُنَّ يَصرُخْنَ في فَزَعٍ وَ رُعْبٍ ، وَقالَتْ واحِدَةٌ :

« لَقَدْ قَتَلوا الصِّبْيانَ الَّذينَ تَعَرَّضوا لَهُمْ بِالحِجارَةِ ، وَالشُّيوخَ الَّذينَ خَرجوا إلَيْهِمْ بِالهِراواتِ ، وَهُمْ يَفْتِكونَ وَيَقْتُلونَ !»

صاحَتْ أخْرى : « لَقَدْ قَتَلوا عِدَّةَ جَوارٍ صادَفوهُنَّ في الطَّريقِ ، بَقَروا بُطونَهُنَّ وداسوهُنَّ بِسَنابِكِ الخَيْلِ !»

وَصاحَتْ ثالِثَةٌ : « أيْنَ الرِّجالُ ؟ أيْنَ الرِّجالُ ؟»

وَعادَ الصُّراخُ مَمْزوجًا بِنُباحِ الكِلابِ وَصَهيلِ الخُيولِ ، وَاصْطِكاكِ السُّيوفِ وَالرِّماحِ . وَقالَتْ « عَبْلَة » : « هُناكَ مَعْرَكَةٌ ، لَقَدْ تَصَدّى لَهُمُ الرِّجالُ .»

قالَتْ « سُمَيَّة » : « لا وَقْتَ لِكُلِّ هَذا ، فَمَنْ بَقِيَ في الحِلَّةِ مِنَ الرِّجالِ لا يَكْفي لِصَدِّ مَوْجِهِمُ الزَّاحِفِ ، هَيّا بِنا نَتْرُكُ الحِلَّةَ وَنَهْرُبُ قَبْلَ أنْ نَقَعَ في الأسْرِ .»

وَلْوَلَتْ « أسْماء » وَهِيَ تَجْري مُثْقَلَةً بِحِمْلِها فَتَقَعُ ، وَتَعودُ تَجْري فَتَصْطَدِمُ بِالنِّساءِ الْمُتَزاحِماتِ وَتَقَعُ مِنْ

جَديـدٍ ، وَصاحَتْ : « نَجْري إلى أَيْنَ ؟ إلى أَيْنَ ؟»

صاحَتْ « عَبْلَة » وَهِيَ تَشُقُّ طَريقَها إلى خارِجِ الخِباءِ بِسُرْعَةٍ : « إلى المَرْعى ، وَرائي إلى الْمَرْعى ، فَهُناكَ « عَنْتَرَة » ، هُناكَ « عَنْتَرَة » .»

الْمَعْرَكَةُ

ما إنْ هَجَمَ الْمَلِكُ « زُهَيْر » وَفُرْسانُ عَبْسٍ عَلى دِيارِ بَني الْمُصْطَلَقِ حَتّى أَخَذَتْهُمُ الدَّهْشَةُ حينَ وَجَدوا الدِّيارَ خالِيَةً لا حِسَّ فيها وَلا صَوْتَ ، وَلا حَتّى نُباحَ كَلْبٍ شارِدٍ. وَأَوْقَفَ الْمَلِكُ « زُهَيْر » صَيْحَةَ (يا لَعَبْسٍ) قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ فَمِهِ ، وَدارَ بِجَوادِهِ دَوْراتٍ ، وَقَدْ أَخَذَتْ جِيادُ الفُرْسانِ مِنْ خَلْفِهِ تَتَحَرَّكُ في عَصَبِيَّةٍ وَقَلَقٍ ، بَعْدَ أَنْ أَوْقَفَها راكِبوها فَجْأَةً ، إِثْرَ انْدِفاعٍ سَريعٍ لِهُجومٍ مُفاجِئٍ . وَتَلَفَّتَ « مالِك بن زُهَيْر » ، وَرُمْحُهُ في يَدِهِ حَوْلَهُ في قَلَقٍ ، بَيْنَما كانَ باقي الفُرْسانِ يَحْمِلونَ سُيوفَهُمْ وَرِماحَهُمْ في أَيْديهِمْ في تَرَقُّبٍ ، وَقالَ الْمَلِكُ زُهَيْر : « لا أَحَدَ في الحِلَّةِ .»

قالَ « شَدّاد بن قُراد » : « وَلا أَصْواتَ نِساءٍ ، أَوْ أَطْفالٍ ، أَوْ شُيوخٍ .»

قالَ « مالِك بْنُ قُراد » : « إنَّهُ سُكونٌ مُريبٌ ، كَالسُّكونِ الَّذي يَسْبِقُ العاصِفَةَ .»

صاحَ « مالِك بْنُ زُهَيْر » : « هَذا كَمينٌ ، اِحْتَمُوا بِالْمَنازِلِ .»

وَما كادَتِ الكَلِماتُ تَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ حَتّى انْهالَتْ عَلَيْهِمُ السِّهامُ وَالرِّماحُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، وَصاحَ فارِسٌ خَلْفَ الْمَلِكِ « زُهَيْر » أصابَهُ سَهْمٌ في صَدْرِهِ ، وَمالَ عَنْ جَوادِهِ صارِخًا ، وَقَدْ مَدَّ يَدَيْهِ إلى صَدْرِهِ يُمْسِكُ بِالسَّهْمِ في عُنْفٍ ، وفي عَيْنَيْهِ نَظْرَةُ دَهْشَةٍ مَذْعورَةٌ .

وَصَرَخَ جَوادٌ مِنَ الألَم ؛ إذْ أصابَهُ سَهْمٌ في عُنُقِهِ فَسَقَطَ إلى الأرْضِ ، وَلَمْ يَتَمَكَّنْ راكِبُهُ مِنَ القَفْزِ مِنْ فَوْقِهِ في الوَقْتِ الْمُناسِبِ ، بَلْ عَلِقَتْ قَدَمُهُ بِالرِّكابِ فَسَقَطَ تَحْتَ جَوادِهِ الصّارِخِ الَّذي سَحَبَهُ بِثِقَلِهِ تَحْتَهُ ، وَجَرى الفُرْسانُ إلى مَدْخَلِ الحِلَّةِ فَقابَلَتْهُمْ مَوْجَةٌ أخْرى مِنَ السِّهامِ وَالحِرابِ الْمُتَساقِطَةِ .

وَمالَ فارِسٌ عَنْ جَوادِهِ مُتَرَنِّحًا ، وَهُوَ يُمْسِكُ بِعُرْفِ جَوادِهِ بِكِلْتا يَدَيْهِ ، في حينَ أصابَ رُمْحٌ فارِسًا آخَرَ فَسَقَطَ مُضَرَّجًا بِدَمِهِ .

وَصاحَ الْمَلِكُ « زُهَيْر » : « نَحْنُ مُحاصَرونَ ، انْزِلوا عَنْ جِيادِكُمْ وَاحْتَموا بِها ، وَبِأيِّ شَيْءٍ ، وَأمْطِروهُمْ بِالسِّهامِ فَلا نَفْعَ لِلسُّيوفِ الآنَ .»

وَأسْرَعَ « مالِك بْنُ زُهَيْر » يَصْرُخُ في الرِّجالِ بِأوامِرِ أبيهِ ، في حينَ قادَ « شَدّاد » مَجْموعَةً مِنَ الفُرْسانِ إلى دارٍ يَتَوَسَّطُ الحِلَّةَ وَتَرَجَّلَ عَنْ جَوادِهِ ، وَانْدَفَعَ إلى داخِلِها وَخَلْفَهُ الرِّجالُ المُتَرَجِّلونَ عَنْ جِيادِهِمْ ، يَحْمِلونَ سِهامَهُمْ وَقِسِيَّهُمْ وَيُبادِلونَ المُهاجِمينَ الرَّمْيَ بِالسِّهامِ .

وَتَمَكَّنَ « مالِك بْنُ زُهَيْر » أنْ يَحْتَمِيَ بِباقي الرِّجالِ خَلْفَ الْمَنازِلِ وَالخِيامِ مِنَ الهَجْمَةِ الغادِرَةِ المُفاجِئَةِ ، في حينَ تَرَجَّلَ « زُهَيْر » عَنْ جَوادِهِ وَاحْتَمى مَعَ رِجالِهِ بِمَرْبِضِ الخَيْلِ الواسِعِ ، وَصاحَ فيهِمْ :

« انْقُلوا أكْياسَ التِّبْنِ إلى هُنا ، وكَوِّنوا حائِطًا نَحْتَمي وَراءَهُ .»

وَأسْرَعَ الرِّجالُ يَحْمِلونَ قِطَعَ الخَشَبِ وَالحِجارَةِ وَالأكْياسَ يَضَعونَها فَوْقَ بَعْضِها ، لِيَحْتَموا خَلْفَها ، في حينَ وَثَبَ « مالِك » وَمَعَهُ مَجْموعَةٌ مِنَ الفُرْسانِ يَقودونَ جِيادَهُمُ المَذْعورَةَ إلى الْمَرْبِضِ الَّذي احْتَمى بِهِ الْمَلِكُ ، تَحْميهِمْ سِهامُ « شَدّاد بن قُراد » وَرِجالِهِ الَّتي تَخْرُجُ كَالْمَوتِ النّافِذِ لِكُلِّ يَدٍ تَظْهَرُ أوْ وَجْهٍ يَبْدو مِنْ خَلْفِ الأكَمَةِ الَّتي احْتَمى بِها « بنو الْمُصْطَلَق » .

وَأمَرَهُ الْمَلِكُ « زُهَيْر » أنْ يُنَظِّمَ صُفوفَ الرِّجالِ في ثَلاثِ مَجْموعاتٍ : واحِدَةٍ في الْمَرْبِضِ حَيْثُ يَقِفُ هُوَ ، وَثانِيَةٍ عِنْدَ « شَدّاد » في البَيْتِ الَّذي يَتَوَسَّطُ المَيْدانَ ، وَثالِثَةٍ تُناوِشُ الأعْداءَ ، وَتَظْهَرُ لَهُمْ في حَذَرٍ لِتَجْذِبَ إلَيْها السِّهامَ حَتّى تَنْكَشِفَ مَكامِنُ الأعْداءِ ، وَتَتَوَجَّهَ إلَيْها السِّهامُ العَبْسِيَّةُ في الحالِ .

وَ وَثَبَ « مالِك » يُنَفِّذُ أمْرَ أبيهِ ، بَيْنَما عادَتْ لِصُفوفِ عَبْسٍ مِسْحَةٌ مِنْ نِظامٍ ، وَأزاحَ الرِّجالُ عَنْهُمْ سَتائِرَ الرُّعْبِ الَّتي شَلَّتْ حَرَكَتَهُمْ عِنْدَ بَدْءِ الهُجومِ ، وَبَدَءوا يُبادِلونَ أعْداءَهُمُ السِّهامَ وَالحِرابَ ، وَهُمْ يَحْتَمونَ خَلْفَ السَّواتِرِ في المَرْبِضِ، أوْ خَلْفَ الجُدْرانِ في البَيْتِ الَّذي يَتَوَسَّطُ الْمَيْدانَ .

* * *

لَمْ تَطُلِ المَعْرَكَةُ في دِيارِ « عَبْس » ، فَقَدْ كانَتِ المُفاجَأةُ كامِلَةً ، وَأخِذَ الفُرْسانُ الَّذينَ تُرِكوا لِحِراسَتِها عَلى غِرَّةٍ ، وَسَرْعانَ ما تَمَكَّنَ المُهاجِمونَ مِنْ أسْرِ مَنْ بَقِيَ عَلى قَيْدِ الحَياةِ مِمَّنْ حاوَلوا صَدَّ الهُجومِ ، وَبَدَءوا عَمَلِيَّةَ نَهْبٍ مُنَظَّمٍ لِدِيارِ الحِلَّةِ ، وَهُمْ لا يَتْرُكونَ بَيْتًا إلا نَهَبوهُ ، وَلا خَيْمَةً إلا مَزَّقوها ، وَلا مالاً إلا سَرَقوهُ ، وَلا امْرَأةً إلا أسَروها .

وَأصابَتْ حِرابُهُمْ وَسُيوفُهُمُ العَجائِزَ وَالأطْفالَ وَالنِّساءَ

دونَ تَمْييزٍ ، فَقَدْ كانَ هُجومُهُمْ وَحْشِيًا وَحاسِماً وَسَرِيعًا ، وَكانَ انْتِصارُهُمْ ساحِقًا وَكامِلاً وَمُزْهُوًّا .

وَ وَسَطَ الحِلَّةِ كانَ « الرَّبيع بن زِياد » مُقَيَّدًا وَإلى جِوارِهِ « شاس بن زُهَيْر » وَ « عُمارة » وَ « عَمْرو بن مالِك » وَغَيْرُهُمْ مِنْ فُرْسانِ الحِلَّة وَشَبابِها ، وَقَدْ رُبِطوا إلى أَوْتادٍ ثُبِّتَتْ بِالأَرْضِ تَنْبَحُهُمُ الكِلابُ ، وَتَنوحُ عَلَيْهِمْ نِساءُ عَبْس الأَسارى يَقودُهُنَّ آسِروهُنَّ إلى حَيْثُ جَمَعوا الأَسْلابَ والأَسْرى .

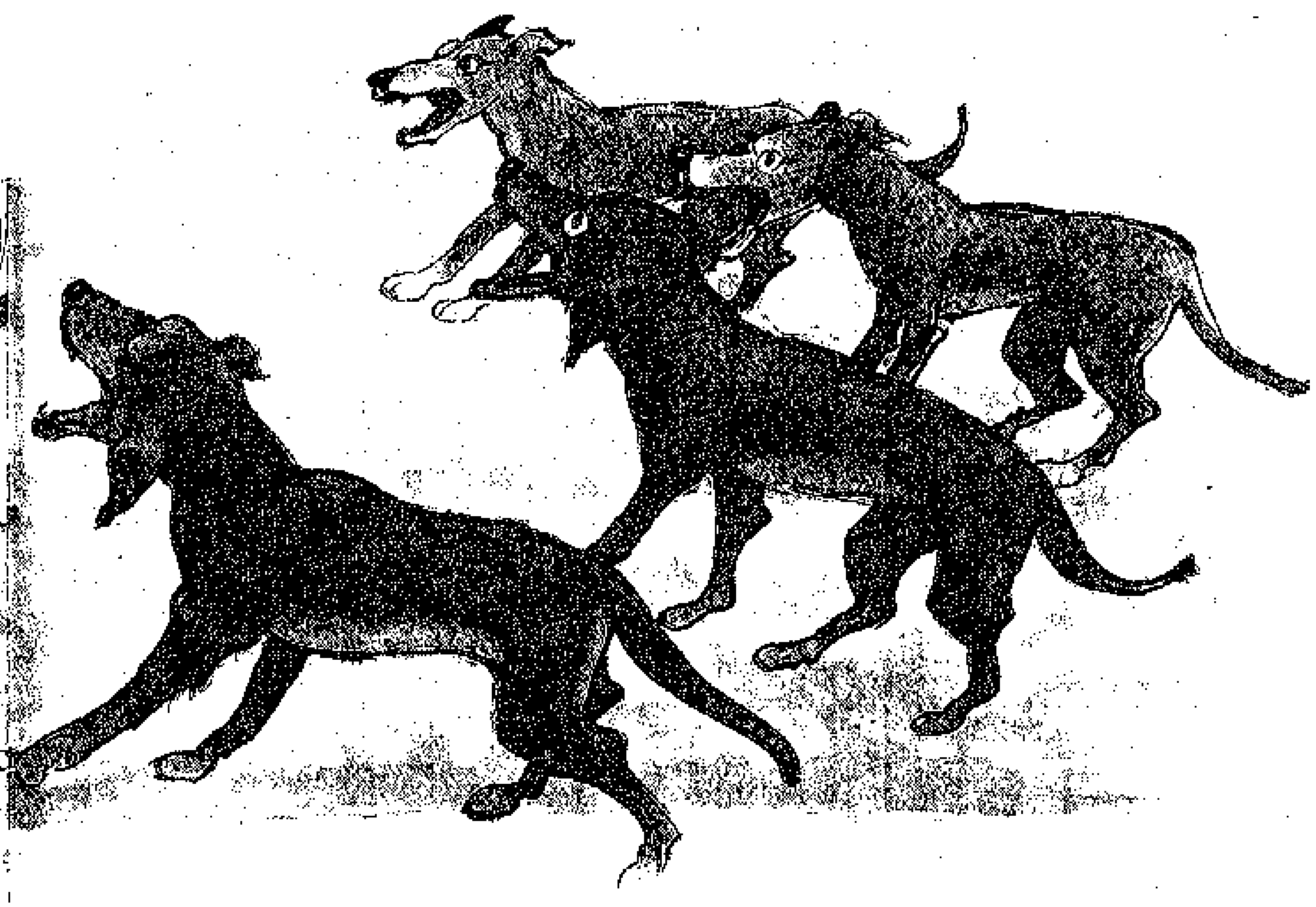

وهمس « شاس بن زُهَيْر » الَّذي يُدْمى مِنْ جُرْحٍ في صَدْرِهِ :

« نِعْمَ الحُرّاسُ نَحْنُ ، وَنِعْمَ الفُرْسانُ كُنّا ! »

هَمَسَ « الرَّبيع » الَّذي شُجَّ رَأْسُهُ مِنْ ضَرْبَةٍ بِكَعْبِ رُمْحٍ :

« لَقَدْ أَخَذونا عَلى غِرَّةٍ ، وَعَبيدُ « زياد » جَميعًا في المَرْعى . »

قالَ « عُمارة » ، وَدُموعُ القَهْرِ تَمْلأُ عَيْنَيْهِ : « رُبَّما سَمِعوا صَوْتَ الغارَةِ وَجاءوا لإنْقاذِنا .»

ضَحِكَ « شاس بن زُهَيْر » في مَرارَةٍ وَهُوَ يَقولُ :

« إنْقاذِنا ؟ كَيْفَ ؟ قِلَّةٌ لا يَعرِفونَ مِنْ شُئونِ القِتالِ إلا الرَّمْيَ بِالحِجارَةِ وَالضَّرْبَ بِالعِصيِّ !»

كانَ « عَمْرو بن مالِك » يُعاني مِنْ سَهْمٍ في فَخْذِهِ أصابَهُ مِنْ أوَّل دَقيقَةٍ في المَعْرَكَةِ ، وَأخْرَجَهُ بِصُعوبَةٍ بالِغَةٍ لِيَرْتَمِيَ مُجْهَداً ، فَيَقَعَ بِدَوْرِهِ في الأسْرِ الذَّليلِ .

قالَ : « كَيْفَ يَكونونَ مِنْ « بَني الْمُصْطَلَقِ » وَقَدْ خَرَجَ المَلِكُ « زُهَيْر » لِلْغارَةِ عَلَيْهِمْ ؟»

عادَ « شاس بن زُهَيْر » يَضْحَكُ في مَرارَةٍ وَهُوَ يَقولُ :

« إنَّها خُدْعَةٌ ، وَالمَعْلوماتُ الَّتي وَصَلَتْ إلى المَلِكِ « زُهَيْر » كانَتْ كاذِبَةً . كانوا يُريدونَ أنْ يَخْرُجَ مِنَ الحِلَّةِ لِمُهاجَمَتِهِمْ فَيَخْلو لَهُمُ الجَوُّ لِتَدْميرِ (الشَّرَبَّةِ والعَلَمِ

السَّعْديّ) وَهَزيمَةِ عَبْسٍ هَزيمةً قاسِيَةً .»

قالَ « الرَّبيع » وَصَوْتُهُ يَشي بِما يُعاني مِنَ الألَمِ مِنْ جُرْحِهِ : « أَخشى ما أخْشاهُ أنْ يَكونَ المَلِكُ « زُهَيْر » قَدْ وَقَعَ في كَمينٍ .»

بَيْنما هَمَسَ « عُمارَة » في صَوْتٍ مُتَقَطِّعٍ : « وَأخْشى أنْ يَكونَ العَبيدُ قَدْ وَقَعوا هُمْ أيْضاً في كَمينٍ .»

وَصاحَ صَوْتٌ أجَشٌّ غَليظٌ وَصاحِبُهُ يَرْكُلُ « عَمْرو بن مالِك » في ظَهْرِهِ فَيُكِبُّهُ عَلى وَجْهِهِ ، وَيَضْرِبُ بِكَعْبِ رُمْحِهِ ظَهْرَ « شاس بن زهير » في غِلْظَةٍ :

« كَفى كَلاماً ! لَوْ سَمِعْتُ مِنْ أحَدِكُمْ صَوْتاً مَرَّةً أخْرى قَتَلْتُكُمْ في الحالِ وَاسْتَغْنَيْتُ عَنْ فِدْيَتِكُمْ ، فَكَمْ يُشْفي غَليلي أن أرى دَمَ بَني عَبْسٍ يَسيلُ عَلى الرِّمالِ .»

الهُروبُ

كانَتْ « عبلة » تَجْري وَهِيَ تَدْفَعُ « سُمَيَّة » أمامَها دَفْعًا، وَ « أسْماء » تَتَعَثَّرُ فيما حَمَلَتْ مَعَها مِنْ مَتاعٍ وَمَلابِسَ وَأمْوالٍ . تَجْري وَتَقَعُ ، لِتَقومَ وَتَجْري مِنْ جَديدٍ ، وَمِنْ حَوْلِها تَتَصايَحُ النِّسْوَةُ المَفْزوعاتُ ، وَيَجْري الأطْفالُ

وَالعَجائِزُ والشُّيوخُ ، وَالكُلُّ لا يُحِسُّ بِلَفْحِ الشَّمْسِ الحارِقَةِ، وَلا بِهَذا الغُبارِ الكَثيفِ الَّذي يُثيرونَهُ وَهُمْ يَجْرونَ في لَهْفِ المَفْزوعِ وَرُعْبِ المَفْجوعِ في المالِ وَالرِّجالِ وَالكَرامَة .

وَقالَتْ « عَبْلَة » :

« لَوْ تَرَكْتِ ما تَحْمِلينَ ، يا أُمّ ، لأَمْكَنَنا أَنْ نُسْرِعَ ، وَلَوْ تَرَكَتْ كُلُّ واحِدَةٍ ما تَحْمِلُ لَتَمَكَّنّا مِنَ الإِفْلاتِ .»

تَلَفَّتَتْ « أَسْماء » حَوْلَها في فَزَعٍ ، وَصاحَتْ وَهِيَ تَتَدافَعُ جارِيَةً : « نَتْرُكُ ما نَحْمِلُ ! وَهؤُلاءِ النِّسْوَةُ اللاتي يَحْمِلْنَ أَطْفالَهُنَّ ، أَ يَتْرُكوهُمْ أَيْضًا ؟ كُفّي عَنِ الكَلامِ وَساعِديني فيما أَحْمِلُ ، وَلْنَسْتَمِرَّ في الجَرْيِ .»

قالَتْ « سُمَيَّة » في يَأْسٍ وَهِيَ تَلْهَثُ : « نَجْري إِلى أَيْنَ ؟ لَيْسَ أَمامَنا إِلا الصَّحْراءُ .»

قالَتْ « عَبْلَة » وَهِيَ تَدْفَعُ أُمَّها دَفْعًا ، وَتُعينُ « سُمَيَّة » بِيَدِها الأُخْرى : « نَجْري إِلى المَرْعى ، نَجْري إِلى « عَنْتَرَة » . هُوَ أَمَلُنا الوَحيدُ الآنَ .»

قالَتْ « أسْماء » : « نَعَمْ ، هُوَ أمَلُنا الوَحيدُ إلا إذا أحَسَّ « بَنو الْمُصْطَلَق » بِهُروبنا فَتَبِعونا ، وَأطْبَقوا عَلَيْنا قَبْلَ أنْ نَصِلَ إلَيْهِ .»

قالَتْ « سُمَيَّة » وَهِيَ تَنْشجُ بِالبُكاءِ : « وَأيْنَ مِنّا المَرْعى الآنَ ؟ إنَّهُ ما زالَ بَعيداً ، بَعيداً .»

وَاسْتَمَرَّتِ النِّسْوَةُ يَجْرينَ وَيَقَعْنَ وَيَصْرُخْنَ ، يُثِرْنَ الغُبارَ حَوْلَهُنَّ ، واحِدَةٌ تَحْمِلُ طِفْلاً ، وَ واحِدَةٌ تُعينُ أمّا عَجوزاً وَأخْرى تَحْمِلُ مَتاعًا أوْ مالاً ، وَالصِّبْيَةُ حَوْلَهُنَّ يَجْرونَ صارِخينَ ، وَبَعْضُ الكِلابِ خَرَجَتْ مَعَ الهارِباتِ تَنْبَحُ في فَزَعٍ يُماثِلُ باقي صُراخِ النِّسْوَةِ مِنْ فَزَعٍ وَ خَوْفٍ .

* * *

قالَتْ « زَبيبَة » : « عَطِشْتُ ، يا ‹‹ عَنْتَرَة ›› .»

ضَحِكَ ‹‹ عَنْتَرَة ›› في عَطْفٍ ، وَأنْزَلَها إلى الأرْضِ بِرِفْقٍ ، وَهُوَ يَقولُ : « الماءُ دائِماً مَعي ، يا أمِّ ، لا يُفارِقُني .»

ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ إلى كَتِفِهِ اليُسْرى حَيْثُ يَحْمِلُ قِرابَ الماءِ ،

فَأخَذَهُ في يَدِهِ وَهَزَّهُ لِيَتأكَّدَ مِنَ امْتِلائِهِ ، ثُمَّ نَزَعَ الرِّباطَ الجِلْدِيَّ الَّذي يُمْسِكُ الفُوَّهَةَ ، وَمَدَّ يَدَهُ بِالماءِ إلى أُمِّهِ تَشْرَبُ في نَهَمٍ ، ثُمَّ أخَذَتْ بَعْضاً مِنَ الماءِ في كَفِّها وَغَسَلَتْ جَبْهَتَها وَ وَجْهَها ، وَهِيَ تَتَنَهَّدُ وَتَقولُ :

« سَقاكَ رَبّي وَرَبُّ الكَعْبَةِ ، يا بُنَيَّ .»

ضَحِكَ « عَنْتَرَة » وَهُوَ يَسْتَعيدُ القِرابَ مِنْها وَيَرْفَعُهُ إلى فَمِهِ يُبَلِّلُ شَفَتَيْهِ ، ثُمَّ يَرْبُطُهُ مِنْ جَديدٍ ، وَيُعيدُهُ إلى كَتِفِهِ وَقالَ : « أَ هُما اثْنانِ ، يا أُمِّ ؟»

تَنَهَّدَتْ « زَبيبَة » وَهِيَ تَقولُ : « بَلْ واحِدٌ في كُلِّ مَكانٍ ، يا بُنَيَّ ، عَبَدْناهُ في بِلادِنا وَنَعْبُدُهُ هُنا ، واحِدٌ لا شَريكَ لَهُ .»

قالَ « عَنْتَرَة » : « تَبارَكَ الإلَهُ ، يا أُمِّ ، عَلَّمْتِنا أنْ نَعْبُدَهُ وَنُحِبَّهُ ، وَمِنْ عِبادَتِنا لَهُ نَرْفُضُ العُبودِيَّةَ لِغَيْرِهِ ، وَمِنْ حُبِّنا لَهُ ، نَكْرَهُ بُغْضَ الآخَرينَ الأعْمى ؛ لا يُسَبِّبُهُ إلا لَوْنُنا وَإلا أنَّنا اسْتَعْبَدَنا القَهْرُ وَالسَّيْفُ وَالظُّلْمُ .»

ثُمَّ انْحَنى يُقَبِّلَ رَأسَها، وَلَكِنَّهُ ما كادَ يَرْفَعُ وَجْهَهُ حَتّى لَمَحَتْ عَيْناهُ أخاهُ « شَيْبوب » يُسْرِعُ نَحْوَهُ وَ وَراءَهُ « جَرير » وَمَعَهُ جَميعُ عَبيدِ المَراعي وَهُمْ يَحْمِلونَ الهِراواتِ وَيُسْرِعونَ نَحْوَهُ ، فَقالَ لأُمِّهِ :

« هُما وَلَداكِ وَمَعَهُما كُلُّ عَبيدِ المَراعي .. تُرى ماذا يُدَبِّرُ « شَيْبوب » بِتَسْليحِ العَبيدِ بالْهِراواتِ . لَقَدْ قالَ إنَّهُ يُريدُهُمْ أنْ يُشاهِدوا مَعْرَكَتي مَعَ « بَسّام » لا أنْ يُشارِكوا فيها .»

قالَتْ « زَبيبَة » : « إنَّهُ يَخافُ عَلَيْكَ ، يا بُنَيَّ ، أنْ يَتَكاثَروا ضِدَّكَ .»

تَنَهَّدَ « عَنْتَرَة » وَهُوَ يَقولُ : « لَنْ يَرْفَعَ واحِدٌ مِنْهُمْ هِراوَتَهُ ضِدَّ أحَدِ السّادَةِ ، وَإنَّما سَتَكونُ المَعْرَكَةُ مَعْرَكَةَ عَبيدٍ ضِدَّ عَبيدٍ ، عَبيدِ عَبْسٍ وَشَدّاد ، ضِدَّ عَبيدِ زِياد وَالرَّبيع ، وَلا عَداوَةَ هُناكَ بَيْنَ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ فَالْكُلُّ عَبيدٌ مَقْهورونَ ، وَلَكِنَّهُمْ سَرْعانَ ما يَرْفَعونَ السِّلاحَ في وُجوهِ بَعْضِهِمُ البَعْضَ لِيَتَسَلّى السّادَةُ ، أوْ يُفْرِغوا حِقْدَهُمْ ضِدَّ

كُلِّ العَبيدِ ، مُوَجِّهاً في شَخْصِ عَبْدٍ واحِدٍ هُوَ أنا «« عَنْتَرَة »» .
لا ، يا أمِّ ، أخْطَأَ «« شَيْبوب »» وَأخْطأ «« جَرير »» لَنْ أسْمَحَ لِواحِدٍ مِنَ العَبيدِ أنْ يُوَرِّطَ نَفْسَهُ في مَعْرَكَةٍ مَعَ زُمَلاء لَهُ مِنْ أجْلي أنا . أنا أسْتَطيعُ أنْ أواجِهَ المُؤامَراتِ وَحْدي ، وَإنْ أرادَ عَبْدٌ أنْ يُرْضِيَ سادَتَهُ بِالبَطْشِ بي فَأنا لَهُ ، أنَكِّلُ بِهِ وَحْدَهُ دونَ سِواهُ .»

وَما انْتَهى « عَنْتَرَة » مِنْ كَلامِهِ حَتّى وَصَلَ « شَيْبوب » وَ « جَرير » وَهُما يَلْهَثانِ . وَقالَ « جَرير » بَيْنَ أنْفاسِهِ المُتَقَطِّعَةِ : « لَقَدْ جِئْتُ بِهِمْ جَميعاً حَتّى إذا جَمَعَ «« بَسّام »» عَبيدَ «« زِياد »» تَصَدَّيْنا لَهُ .»

هَزَّ « عَنْتَرَة » رَأسَهُ في أسًى وَهُوَ يَقولُ لِـ « زَبيبَة » : « أ لَمْ أقُلْ لَكِ ، يا أمِّ ؟ إنَّ حَماسَ أخَوَيَّ لي أنْساهُما أنَّهُما أيْضاً لَيْسا طَرَفاً في قَضِيَّتي ، لا هُما وَلا باقي عَبيدِ شَدّاد ، وَمَنْ يَتَحَمَّسُ لَهُمْ وَلي مِنْ عَبيدِ عَبْسٍ .»

قالَ « شَيْبوب » في حِدَّةٍ : « كُفَّ عَنْ هَذا الكَلام ، يا «« عَنْتَرَة »» ، فَلَنْ نَتْرُكَكَ تُذْبَحُ أمامَنا ذَبْحَ النِّعاجِ .»

قالَتْ « زَبيبَة » : « بَلْ ‹‹ عَنْتَرَة ›› عَلى حَقٍّ ، أنا أخافُ عَلَيْهِ ، وَلَكِنّي لا أحِبُّ أنْ يَكونَ سَبَباً في أذًى يُصيبُ الأبْرِياءَ .»

قالَ « جَرير » : « تَخافينَ عَلَيْهِ ، وَتُريدينَ مِنّا أنْ نَتْرُكَهُ فَريسَةً لِعَبيدِ زِيادٍ ؟»

قالَتْ « زبيبة » في نَبَراتٍ مُتَّزِنَةٍ هادِئَةٍ : « بلْ أخافُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ سوءٍ يَمَسُّهُ ، وَلَكِنَّ الآخَرينَ لا ذَنْبَ لَهُمْ .»

وَكانَ العَبيدُ الآخَرونَ قَدْ وَصَلوا إلى حَيْثُ وَقَفَ « عَنْتَرَة » و « زَبيبَة » وَتَحَلَّقوا حَوْلَهُما يَنْظُرانِ إلَيْهِما في صَمْتٍ ، وَتَقَدَّمَ العَبْدُ « زاهِر » عَبْدُ « مالِك بن قُراد » إلى « زَبيبَة » وَهُوَ يَحْمِلُ مُلاءَةً بَسَطَها فَوْقَ رَأْسِها وَهُوَ يَقولُ :

« الشَّمْسُ حامِيَةٌ ، يا خالَةُ ‹‹ زَبيبَة ›› ، وَلا مَكانَ لَكِ هُنا، إمّا أنْ نَعودَ إلى ظِلِّ المَرْعى ، وَإما أنْ نَعودَ بِكِ إلى الحِلَّةِ ، وَمَنْزِلُكِ هُناكَ .»

ابْتَسَمَتْ « زَبيبَة » ابْتِسامَةً حُلْوَةً وَهِيَ تَقولُ : « كُلُّكُمْ

أوْلادي ، وكُلُّكُمْ أحِبّائي ، وَلَسْتُ أريدُ لأحَدِكُمْ أنْ يُعاقِبَهُ سَيِّدُهُ مِنْ أجْلِ وَلدي «« عَنْتَرَة »» .»

قالَ « زاهِر » ، وَكانَ رَجُلاً مُكْتَمِلَ الرُّجولَةِ مَفْتولَ العَضَلاتِ : « «« عَنْتَرَة »» ، يا خالَةُ «« زَبيبَة »» ، زَيْنُ الرِّجالِ وَهُوَ مِنّا وَنَحْنُ مِنْهُ ، وَما يَفْعَلُهُ يُعْلي مِنْ قَدْرِنا جَميعاً ، فَقَدْ أثْبَتَ أنَّ شَجاعَةَ الأسْوَدِ لا تَقِلُّ عَنْ شَجاعَةِ الأبْيَضِ ، وَأنَّ اعْتِزازَ الأسْوَدِ بِكَرامَتِهِ لا يَقِلُّ عَنِ اعْتِزازِ غَيْرِ الأسْوَدِ بِها ، أثْبَتَ أنَّنا أناسٌ أحْياءٌ لَنا وُجودٌ وَلَنا حُقوقٌ .»

قالَتْ « زَبيبَة » في أسًى : « لَوْ سَمِعَكَ «« مالِك بن قُراد »» وَأنْتَ تَتَحَدَّثُ عَنِ الحُقوقِ لأمَرَ بِكَ فَجُلِدْتَ ، وَلازْدادَ سُخْطُهُ عَلى «« عَنْتَرَة »» وَازْدادَتْ كَراهِيَتُهُ لَهُ .»

اِسْتَمَرَّ « زاهِر » يَقولُ ، وَهُوَ يُحَدِّقُ في وَجْهِ « عَنْتَرَة » في إعْجابٍ وَحُبٍّ : « وَكَلِماتُهُ ، يا خالَةُ «« زبيبة »» ، كَلِماتُهُ الشّاعِرَةُ رَفَعَتْ مِنْ قيمَةِ كُلِّ واحِدٍ مِنّا ، فَنَحْنُ نَسْتَطيعُ أنْ نَعْرِفَ أسْرارَ الحِكْمَةِ وَالوِجْدانِ وَالحُبِّ . نَسْتَطيعُ أنْ نَكونَ بَشَراً كَباقي البَشَرِ ، وَأنْ نُعَبِّرَ بِالكَلِمَةِ

الشاعِرَةِ عَنْ أرَقِّ مَشاعِرِنا وَأنْبَلِها . كَلِماتُهُ ، يا خالةُ « زبيبة » ، شَهادَةٌ لَنا بِحَقِّنا في الحُرِّيَّةِ وَالمُساواةِ ، في أنْ نُحِبَّ وَأنْ نَتطَلَّعَ إلى مَعْنى النُّبْلِ وَالشَّرَفِ .»

تَنَهَّدَتْ « زَبيبَة » في أسًى ، وَأطْرَقَتْ بِرَأسِها وَهِيَ تَقولُ: « ما لَنا ولِلْكَلامِ ، يا بُنَيَّ ، لَمْ يَجُرَّ عَلَيْنا ما نَحْنُ فيهِ الآنَ إلا الكَلامُ .. هَذا الشِّعْرُ الَّذي قالَهُ « عَنْتَرَة » وَذَكَرَ فيهِ « عبلة » ، وَتَناقَلَهُ النّاسُ ، وَرَدَّدوهُ ، وَيَشْهَدُ رَبُّ الكَعْبَةِ أنَّها أخْتُهُ وَيَخافُ عَلَيْها كَأخْتِهِ . وَلَكِنَّ هذا الكَلامَ ، يا « زاهر » ، هُوَ الَّذي جَرَّ عَلَيْهِ نِقْمَةَ سَيِّدِكَ « مالِك » وَسَيِّدِكَ « عَمْرو » وَالسّادَةِ كُلِّهِمْ ، وَقَرَّروا قَتْلَهُ وَالتَّخَلُّصَ مِنْهُ وَمِنْ كَلِماتِهِ وَمِنْ شِعْرِهِ .»

قالَ « عَنْتَرَة » : « أقولُ الشِّعْرَ وَفاءً بِما أجِدُ في نَفْسي مِنْ مَعانٍ وَقِيَمٍ ، وَما أجِدُ في قَلْبي مِنْ وِجْدانٍ يَمورُ بِالحُبِّ وَالكَرامَةِ ، وَما يَقْفِزُ إلى لِساني مِنْ فَصيحِ الكَلامِ وَشَريفِهِ وَجَميلِهِ .»

قالَ « شَيْبوب » : « هَذِهِ أشْياءُ لَمْ يَخْتَصَّ بِها أحَدٌ إلا

خَواصُّ الخَواصِّ ، وَالشّاعِرُ عِنْدَهُمْ في مَنْزِلَةٍ لا تُدانيها مَنْزِلَةٌ ، وَلا تَرْتَفِعُ إِلَيْها هِمَّةٌ ، هُمْ يُكَرِّمونَهُ وَيُجِلّونَهُ وَيَبَرّونَهُ .. أَ تُريدُ مِنْهُمْ أَنْ يَمْنَحوكَ هَذِهِ المَكانَةَ وَهُمْ لا يُريدونَ أَنْ يَعْتَرِفوا بِمُجَرَّدِ وُجودِكَ ؟ أَنْتَ تَحْلُمُ في عِزِّ النَّهار ، يا «عَنْتَرَة» .»

قالَ « عَنْتَرَة » : « لا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ أَنْ يَحْجُبَ الحُلْمَ عَنّي ، فَأَنا أَعيشُ مِنْ أَجْلِهِ .. وَسَأَموتُ وَأَنا أُحاوِلُ أَنْ أُحَوِّلَهُ إِلى حَقيقَةٍ وَاثِقَةٍ يَعْتَرِفُ بِها الكُلُّ .»

قَبْلَ أَنْ يَجيبَهُ أَحَدٌ عَلى كَلِماتِهِ الشُّجاعَةِ ، ارْتَفَعَ صَوْتٌ مِنْ ناحِيَةِ الشَّرْقِ ، وَصاحَ أَحَدُ العَبيدِ : « غَبْرَةٌ مِنْ ناحِيَةِ الحِلَّةِ !»

صاحَ « جَرير » : « عَبيدُ «الرَّبيع» يَهْجُمونَ بِقِيادَةِ «بَسّام» !»

قالَ « عَنْتَرَة » : « تَرَيَّثْ ، يا «جَرير» .»

عَنْتَرَة وَالخُدْعَة

وَتَوَقَّفَ العَبيدُ لِكَلِماتِهِ . كانَ كُلٌّ مِنْهُمْ قَدْ رَفَعَ الهِراوَةَ، أَوْ تَلَفَّتَ حَوْلَهُ بَحْثًا عَنْ حَجَرٍ ، وَقَدْ لَمِعَتْ عُيونُهُمْ بِشَرارِ الغَضَبِ وَالحَنَقِ . وَعادَ « عَنْتَرَة » يَقولُ وَهُوَ يُدَقِّقُ النَّظَرَ في الغَبْرَةِ المُتَحَرِّكَةِ نَحْوَهُمْ مِنَ اتِّجاهِ الحِلَّةِ :

« هَذِهِ لَيْسَتْ غَبْرَةَ خَيْلٍ مُهاجِمَةٍ . هَذِهِ غَبْرَةُ قَوْمٍ يُهَرْوِلونَ مُسْرِعينَ .»

صاحَ « شَيْبوب » : « إِنَّهُمْ يَجْرونَ وَكَأَنَّ الحَيَّةَ في أَعْقابِهِمْ .»

قالَ « جَرير » وَقَدْ بَدَأَتِ الغَبْرَةُ المُثارَةُ تَنْقَشِعُ قَليلاً : « إِنَّهُمْ نِساءٌ وَأَطْفالٌ وَكِلابٌ .»

ثُمَّ صاحَ فَجْأَةً : « إِنَّهُمْ نِساءُ عَبْسٍ .»

وَصاحَ « عَنْتَرَة » : « هَذِهِ ‹‹ عَبْلَة ›› في مُقَدِّمَتِهِمْ وَمَعَها السَّيِّدَةُ ‹‹ أَسْماء ›› وَالسَّيِّدَةُ ‹‹ سُمَيَّة ›› .»

صاحَتْ « زَبيبَة » في ذُعْرٍ : « ‹‹ عَبْلَة ›› ! ‹‹ أَسْماء ›› ! ‹‹ سُمَيَّة ›› ! ، يا إِلَهي نَجِّنا مِنْ شَرِّ هذا اليَوْمِ الكَريهِ .»

وَانْدَفَعَ « شَيْبوب » يَجْري نَحْوَ الغَبْرَةِ القادِمَةِ ، كَما انْدَفَعَ العَبيد وَراءَهُ ، وَحَمَلَ « عَنْتَرَة » أُمَّهُ « زَبيبَة » رَغْمَ احْتِجاجِها ، وَانْطَلَقَ يَجْري نَحْوَ النِّسْوَةِ اللاتي انْكَشَفَ عَنْهُنَّ الغُبارُ ، الَّذي أَثارَتْهُ أَقْدامُهُنَّ حَوْلَهُنَّ ، وَكُلَّما اقْتَرَبوا مِنْهُنَّ ظَهَرَتْ حالَتُهُنَّ المُزْرِيَةُ . وَبَدَتْ مَلامِحُ الرُّعْبِ الَّذي كَسا وَجوهَهُنَّ وَما هُنَّ فيهِ مِنْ هَلَعٍ وَذُعْرٍ . وَ وصَلَتْ إِلَيْهِمْ أَصْواتُهُنَّ الصّارِخَةُ الباكِيَةُ ، وَبَعْضُ صَيْحاتٍ مُتَقَطِّعَةٍ لاهِثَةٍ تَقولُ :

« ‹‹ بَنو الْمُصْطَلَقِ ›› .. غارَةٌ .. أَسَروا الفُرْسانَ ، قَتَلوا الكُلَّ .. نَهبوا الحِلَّةَ !»

وَصاحَ « عَنْتَرَة » وَهُوَ يَضَعُ أُمَّهُ عَلى الأَرْضِ لِتَجْرِيَ

وَتَحْتَضِنَ « عَبْلَة » وَهِيَ تَبْكي ، في حينَ أحاطَتْ بِهما « أَسْماء » وَ « سُمَيَّة » باكِيَتَيْنِ : « وَلَكِنَّ الْمَلِكَ « زُهَيْر » خَرَجَ لِيَغْزُوَ دِيارَهُمْ .»

قالَتْ « عَبْلَة » وَهِيَ تَلْتَقِطُ أَنْفاسَها اللاهِثَةَ بِصُعوبَةٍ بالِغَةٍ : « إِنَّها خُدْعَةٌ حَتّى تَخْلُوَ الحِلَّةُ مِنْ رِجالِها .»

قالَ « عَنْتَرَة » وَهُوَ يَتَأَمَّلُ وَجْهَها الَّذي امْتَلأَ بِالدِّماءِ فَازْدادَ إِشْراقًا ، رَغْمَ اضْطِرابِها ، وَازدادَ جَمالاً ، رَغْمَ لَهْفَتِها وَخَوْفِها :

« وَالفُرْسانُ الَّذينَ تَرَكَهُمْ في الحِلَّة ؟»

قالَتْ « أَسْماء » في مَرارَةٍ : « جَرَّدوا الحِلَّةَ مِنْ كُلِّ العَبيدِ المُقاتِلينَ ، وَأَرْسَلوهُمْ خَلْفَكَ لِقَتْلِكَ ، وَحينَ هَجَمَ « بَنو الْمُصْطَلَق » لَمْ يَكُنْ في الحِلَّةِ إلا حَفْنَةٌ مِنَ الرِّجالِ وَبَعْضُ الصِّبْيانِ ، وَسَرْعانَ ما جُرِحوا وأُسِروا وَتَرَكوا الحِلَّةَ وَنِساءَ الحِلَّةِ وَمالَ الحِلَّةِ نَهْبًا لِلْغُزاةِ .»

قالَ « عَنْتَرَة » وَهُوَ يُجيلُ النَّظَرَ في الجَمْعِ المَذْعورِ ، ثُمَّ

يُنَقِّلُ بَصَرَهُ إلى عَبيدِ عَبْسٍ المُتَحَفِّزينَ : « إنَّ الغُزاةَ ما زالوا في الحِلَّةِ .»

صاحَتْ « أسْماء » : « إنَّهُمْ ما زالوا هُناكَ يَنْهَبونَ وَيَقْتُلونَ .»

قالَ « عَنْتَرَة » : « وَعَلَيْنا أنْ نَسْتَعيدَ الحِلَّةَ مِنْهُمْ ، وَنَفُكَّ أسْرَ فُرْسانِ عَبْسٍ المَأسورينَ .»

صاحَتْ « عَبْلَة » : « أحْسَنْتَ ، يا «« عَنْتَرَة »» ، هَكَذا يَكونُ الفِعْلُ ، وَهَكَذا يَكونُ الكَلامُ .»

صاحَتْ « زَبيبَة » : « وَلَكِنَّهُمْ تآمَروا على قَتْلِكَ ، وَأرْسَلوا عَبْدَ «« الربيع »» «« بَسّام »» لِيَكْمُنَ لَكَ وَيَقْضِيَ عَلَيْكَ .»

قالَ « عَنْتَرَة » : « هُمْ أهْلي ، وإنْ رَفَضوا أنْ يَعْتَرِفوا بي .»

وَكادَ « جَرير » يَعْتَرِضُ ، وَكادَ « شَيْبوب » يَصْرُخُ فيهِ بِالرَّفْضِ ، وَقالَتْ « سُمَيَّة » قَبْلَهُما :

« وَلَكِنَّهُمْ فُرْسانٌ مُسَلَّحونَ ، وَأنْتُمْ .. أنْتُمْ .»

قالَ « عَنْتَرَة » : « مُجَرَّدُ عَبيدٍ ، قوليها ، يا سَيِّدَةُ « سُمَيَّة » ، نَعَمْ ، نَحنُ مُجَرَّدُ عَبيدٍ عِنْدَكُمْ أنْتُمْ ، أمّا في أعْماقِنا فَنَحْنُ أحْرارٌ نَفي لِما نَنْتَمي إلَيْهِ .. وَمَعَنا عُنْصُرُ المُفاجَأةِ ؛ فَهُمْ مَشْغولونَ بِالسَّلْبِ وَالنَّهْبِ ، وَيَحْسَبونَ أنَّهُمْ قَضَوا عَلى كُلِّ مُقاوَمَةٍ، بَلْ لَعَلَّهُمْ شَرَعوا يَبْحَثونَ عَنِ النِّسْوَةِ الهارِباتِ لِيَتَعَقَّبوهُنَّ وَيَأسِروهُنَّ .»

وَصاحَتْ « أسْماء » ، مَذْعورَةً ، وَصَرَخَتِ النِّساءُ ، وَأخَذْنَ يُوَلْوِلْنَ ، وَهُنَّ يَنْظُرْنَ خَلْفَهُنَّ في رُعْبٍ وَفَزَعٍ ، وَصاحَ « شَيْبوب » :

« صَدَقَتْ نُبوءَتُكَ ، يا « عَنْتَرَة » ، هُناكَ غَبْرَةُ خَيْلٍ تَرْكُضُ بِسُرْعَةٍ آتِيَةً مِنَ المَضارِبِ .»

قالَ « عَنْتَرَة » : « كَفَوْنا مَئونَةَ الذَّهابِ إلَيْهِمْ .. هَيّا اخْتَفوا وَسَطَ جَمْعِ النِّساءِ ، وَلْنَجْرِ جَميعاً كَأنَّنا نَهْرُبُ مِنْهُمْ ، وَعَلى النِّساءِ ألا يَكْفُفْنَ عَنِ الصُّراخِ وَالوَلْوَلَةِ . تَعالي ، يا « عَبْلَة » ؛ تَعالي ، يا « زَبيبَة » . أسْرِعا أمامي وَلْيَخْتَبِئِ العَبيدُ جَميعاً وَسَطَ النِّسْوَةِ .. اتْبَعوني ، وَحينَ

يَقْتَرِبونَ مِنّا يَجِبُ أنْ تَزْدادَ مَظاهِرُ الذُّعْرِ وَالبُكاءِ ، وَعِنْدَما أصيحُ بِكُنَّ تَفَرَّقْنَ في كُلِّ اتِّجاهٍ حَتّى يَتَفَرَّقَ الفُرْسانُ وَراءَكُنَّ .

« أمّا أَنْتُمْ أَيُّها الرِّجالُ فَلْيُراقِبْ كُلٌّ مِنْكُمْ فارِسًا بِذاتِهِ أَثْناءَ جَرْيِنا ، وَلا يَدَعْهُ يَغيبُ عَنْ بَصَرِهِ أَبَدًا ، فَإذا ما اقْتَرَبوا مِنّا تَمامًا ، وَصِحْتُ عَلى النِّساءِ لِيَتَفَرَّقْنَ ، سَتَنْتابُهُمْ لَحْظَةُ تَرَدُّدٍ وَحَيْرَةٍ ، في هَذِهِ اللَّحْظَةِ لِيَقْفِزْ كُلُّ رَجُلٍ عَلى فارِسٍ، وَيَرْمِهِ مِنْ فَوْقِ جَوادِهِ ، وَلْيَفْعَلْ ما يَسْتَطيعُ بِهِراوَتِهِ أَوْ بِالْحَجَرِ الَّذي يَضُمُّهُ في كَفِّهِ ، وَحينَ تَبْتَعِدُ النِّسْوَةُ تَمامًا سَتُصْبِحُ المَسْأَلَةُ مُتَساوِيَةً ؛ رَجُلٌ لِرَجُلٍ ، لا جَوادَ وَلا سِلاحَ ، وَلا فَرْقَ إلا الشَّجاعَةُ وَالهِمَّةُ .. وَانْتَبِهوا ، هَذا اخْتِبارٌ لَكُمْ ، وَما هُمْ إلا رِجالٌ جَشِعونَ لا يَعْرِفونَ الرَّحْمَةَ وَلا حُرْمَةَ النِّساءِ ، وَإلا ما تَعَقَّبوهُنَّ إلى وَسَطِ الصَّحْراءِ .»

وَأَسْرَعَ الجَميعُ كُتْلَةً مُتَراصَّةً تَجْري في ذُعْرٍ ، وَقَدِ ازْدادَ صُراخُ النِّساءِ وَعَويلُهُنَّ ، في حينَ اقْتَرَبَ الفُرْسانُ

مِنْهُنَّ وَهُمْ يَصْرُخونَ في فَرَحٍ وَحْشِيٍّ ، وَيُلَوِّحونَ بِحِرابِهِمْ وَسُيوفِهِمْ ، وَهُمْ يَرْكُضونَ بِخُيولِهِمْ بِسُرْعَةٍ مَجْنونَةٍ ، وَكَأَنَّما يُريدونَ سَحْقَ مَجْموعَةِ النِّساءِ الهارِباتِ سَحْقًا تَحْتَ سَنابِكِ خُيولِهِمْ بِلا هَوادَةٍ وَلا رَحْمَةٍ .

تُرى هَلْ يَنْتَصِرُ « عَنْتَرَة » في هَذِهِ المَعْرَكَةِ الغَريبَةِ ؟

الينابيع تتفجّر من التُّراث العربيّ الأصيل ، ومن السِّيَر الشّعبية الغنيّة ، ومن الحِكايات الشّعبية العَربيّة ؛ لِتُصوِّر نماذج مُضيئة من تراثنا ، وتعرض قِيماً مُشرقة في حياتنا : تمزج بين الجِدِّ ، والفُكاهة في لُغة هادئة راقية : لا تعلو فتعوق القارئ وتصدّه ولا تسفُّ فتهبط بذوقه ومستواه ، وإنما تمتِّع وِجدانه وقلبه ، وتُثري فِكره وعقله .

الينابيع

١- سيف الإحسان وقصص أخرى
٢- حبات العقد وقصص أخرى
٣- الباحث عن الحظ وقصص أخرى
٤- مشورة قصير وقصص أخرى
٥- الشعرة الذهبية وقصص أخرى
٦- عنترة بن شداد : مولد البطل
٧- عنترة بن شداد : عبلة والصبي المقاتل
٨- عنترة بن شداد : السيف و
٩- عنترة بن شداد : يوم عنترة
١٠- رحلة السندباد المجهولة

Bibliotheca Alexandrina
0273491

يطلب من : شركة أبو الهول للنشر

٣ شارع شواربي بالقاهرة ت : ٣٩٣٥٦٠٨ ؛ ٣٩٢٤٦١٦

١٢٧ طريق الحرية (فؤاد سابقا) - الشلالات ، الإسكندرية ت : ٤٩٢٤٨٣٩